لماذا ندرس السيرة النبوية؟

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (صدق الله العلي العظيم)

في البدء لابد أن نطرح سؤالاً... وهو لماذا ندرس السيرة النبوية؟ هل لمجرد الاطلاع على جانب من جوانب التاريخ، أو لكي نحصل على بعض المعلومات التاريخية، يعني التاريخ لمجرد التاريخ، أو السيرة لمجرد السيرة فهذا ليس هدفنا... وليس مهمتنا هي مجرد الإعجاب العاطفي لشخصية النبي محمد (صلّى الله عليه وآله).

صحيح انه لم يأت إلى هذه الحياة شخصية عظيمة كشخصية النبي من حيث التأثير على الحياة الإنسانية... والآثار التي تركها على حياة الإنسان، وحياة هذا العالم، إلا أن مجرد الإعجاب العاطفي لشخص النبي (صلّى الله عليه وآله) وليس هو المطلوب منا، نحن المسلمون، إنما المطلوب أن نتجاوز مرحلة الإعجاب العاطفي إلى مرحلة الاقتداء والاتباع واقتفاء الأثر.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) و(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا)..

المطلوب هو الاتباع وتلمس نقاط الضوء في حياة النبي، وإلا فإن هناك من غير المسلمين من عبروا عن إعجابهم بشخصية النبي (صلّى الله عليه وآله) اكثر منا.. إذا كان المطلوب هو مجرد الإعجاب بشخصية النبي وعظمائنا.

رجل مسيحي ألف كتاباً بعنوان (شخصيات غيرت وجه التاريخ) ويحدد في هذا الكتاب مائة شخصية غيرت وجه التاريخ، مجموعة من الشخصيات والقادة والعظماء والنابغين الذين أثروا في التاريخ الإنساني، بما فيهم بعض الأنبياء والعباقرة والمخترعين، لكن اختياره لم يكن لتسلسل الأسماء حسب التاريخ الزمني لكل عظيم، أو حسب التسلسل الأبجدي لأوائل أسمائهم... إنما تم اختيار ترتيب هذه الشخصيات في هذا الكتاب على حسب مقدار التأثير على تاريخ البشرية... فأول

اسم في هذا الكتاب والشخصية رقم واحد فيه هو شخصية النبي (صلّى الله عليه وآله)، يقول المؤلف في هذا الكتاب أنه اختار هذا المقياس حسب تعيين الكومبيوتر، يعني الكومبيوتر هو الذي يحدد تأثير كل شخصية من هذه الشخصيات التاريخية، وهو رجل مسيحي أمريكي، والمفروض في هذا الرجل أن يقدس المسيح أكثر ممّا يقدس نبينا.. لكن اسم المسيح يأتي في هذا الكتاب حسب هذا المقياس الكومبيوتري في الرقم (١٣) من تسلسل أسماء الشخصيات التاريخية بينما نبينا (صلّى الله عليه وآله) هو أوّل شخصية وأول اسم في هذا الكتاب.

هذا دليل على الإعجاب بشخصية النبي مجرد الإعجاب لأنه عظيم لا يكفي، وليس هو المطلوب منّا، بل المطلوب منّا اكثر... ففي هذا المجال، ربما يسبقنا أناس آخرون من الذين يعرفون أن يقيموا الشخصيات تقييماً علمياً، إنما المطلوب منا العمل بسنة النبي باعتبار أن السنة تأتي بالدرجة الثانية بعد القرآن من مصادر التشريع ومنابع الإسلام الأولية، والسنة النبوية الطاهرة تعتبر هي الجانب العملي والتفصيلي من الإسلام، ليس السنة النبوية بمفهومها الفقهي الضيق بل السنة النبوية بمعناها الواسع التي تعني طريقة النبي في الحياة.

السنة لغة: الطريقة

طريقة النبي.. كيف كانت في مختلف المجالات الحياتية؟

طريقته في مجال الحياة الفردية والاجتماعية، وفي التعامل مع الزوجة والأولاد، وطريقته في السلم والحرب، والعلاقات الدولية، وطريقته في السلم والحرب، والعلاقات الدولية، وطريقته في الاقتصاد، ونظام الحكم، كل هذه تعتبر جزء من سنة النبي (صلّى الله عليه وآله) ويجب علينا أن نعرف السنة في هذه الموارد حتى نتمكن من تطبيقها واستنباط الأحكام والمواقف منها... أن سنة النبي حسب ما يقدر علماء الأصول تعني كل شخصية النبي (صلّى الله عليه وآله) وحياته، وكل حركة وسكنة وهمسة بل وحتى سكوته ونظرات عينيه ولفتاته، كل هذه الأجزاء الدقيقة والصامتة من سلوك النبي الخارجي تعتبر سنة فيقولون: بأن تقرير النبي حجة، تقرير النبي يعني مجرد سكوته على عمل شيء...إذا لاحظ النبي تصرفاً معيناً من شخص معين فإذا كان ذلك التصرف

منافياً للإسلام فالمروض أن ينهى النبي عن هذا التصرف، وإن هذا العمل مسموح به شرعاً... فسكوت النبي يعطي شرعية لهذا العمل، أو ذاك التصرف، أذن كل حياة النبي بكل أبعادها هي جزء لا يتجزأ من رسالته ودعوته، جزء من الوحي، والملاحظ في شخصية النبي إنه كان ذائباً في رسالته، كان لا يمثل نفسه، وإنما كان يمثل دعوته، ويمثل المبدأ الذي يدعو إليه.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَ وَحْيٌ يُوحَى).

أذن المفروض علينا هو البحث عن سنة النبي أي معرفة طريقته في الحياة وكل جوانب الحياة - هذه النقطة الأولى -.

الهدف الثاني: من دراستنا لسيرة النبي (صلّى الله عليه وآله) إن الإنسان بحاجة إلى قدوة وهناك كثير من النظريات الجيدة في الحياة وهناك كثير من المبادئ والفضائل والقيم والأخلاق، لكن قليلاً من الناس من يطبق المبادئ.

الكثير من الناس يعرف بأن الصدق واجب وأن الأمانة حسنة، وأن الوفاء خلق حسن، وأن الكذب سيئ وأن الخيانة والغدر وعدم الوفاء خلق رديء، لكن قليلاً من الناس تراه يصدق في كلامه... أو يعمل بالأمانة؟

فقليل من الناس يلتزم بهذه الأخلاق... لماذا؟

لأن مجرد النظريات الذهنية والأفكار الباردة لا تستقطب اهتمام الناس، ولا تؤثر على روح الإنسان ولا تجذبه إلى تطبيق المبادئ... والأخلاق، بل الإنسان بحاجة إلى القدوة إلى الرمز الذي يرمز إلى هذه الأخلاق والمبادئ، كثير من الناس يحب أن يلتزم بالأخلاق والفضائل والقيم... وهناك الكثير ممن يقول أريد أن أكون إنساناً فاضلاً، إنساناً كاملاً ناجحاً في الحياة، ولكن كيف؟ ومثل من؟ هذا السؤال يبقى بدون جواب في حياة الكثير من الناس.

الغرب وأزمة القيم:

والغرب بما وصل إليه من تقدم صناعي وتطور تكنولوجي، لكن الإنسان في الغرب يعاني من أزمة تخل في توازنه النفسي، تجعل حياته مختلة، قلقة، غير هادفة وهي (أزمة أخلاق).

فالأخلاق والقيم التي يطبقها في حياته قيم مادية نابعة من منطلق مادي، ومن عقلية مصلحية، عقلية انتهازية، ويتعامل الناس في الغرب تعاملاً تجارياً ومصلحياً، وهذه أزمة أوصلت الغرب إلى طريق مسدود، فهو يشكو من الفراغ الروحي، ويشكو من الأزمة الأخلاقية لعدم اقتناعه بقضية القيم والمبادئ نتيجة عدم وجود القدرة والمثل الأعلى والمناهج التطبيقية.

فمثلاً نجد سارتر يقول: (نحن لا نجد تحليلاً منطقياً للأخلاق) ما هي الأخلاق، وما هو الداعي إلى أن يكون الإنسان صادقاً، مهذباً، وفياً، أميناً، أو كريماً، فمثل هذه القيم والأخلاق ما دامت لا تخضع للتجربة لا تخضع للمختبرات ولا تدخل تحت المجاهر والمكرسكوب، ولا تقاس بالأمتار والكيلومترات.. أذن لا وجود لها، هذا هو المنطق المادي الذي يقيس الأمور بمقياس مادي، مقياس الربح والخسارة، فكل ما يسمع ويرى ويشم ويلمس له وجود، والشيء الذي يخضع للتجربة، ويدرك بالحواس يؤمن به.. أما الشيء الخارج عن نطاق الحواس لا يؤمن به... هذه الأزمة التي يعاني منها الغرب نتيجة تقدمه المادي على حساب تقدمه الروحي والإيمان بالقيم... فما هو السبب؟

الحل.. في الإسلام:

فلأنه لم يجد أمامه قدوات أو مثل عليا تجسد له القيم والأخلاق، لأن الإنسان الغربي لم يجد أمامه القدوة والرمز، ولا يجد أمامه أفراداً طبقوا هذه المبادئ، فلا يتمكن أن يدرك قابلية هذه المبادئ للتطبيق... بينما الإسلام حل هذه المشكلة، فوضع لنا قدوات ومثلاً عليا، ورموزاً تجسد القيم والأخلاق.

وطبعاً أن الأفكار والمبادئ التي طبقها الإنسان، والقيم التي تتجسد في قالب البشر، تكون أقدر على التأثير من مجرد النظريات الذهنية، فالرسول (صلّى الله عليه وآله) هو الإسلام المجسد، وهو القيم التي تجسدت في قالب الإنسان، وهو القرآن الذي يمشي على قدمين.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ).

أذن الحاجة إلى القدوة والمثل الأعلى تدفعنا إلى التعرف على قادتنا... وفي مقدمة القدوات الخيرة

في تاريخنا الإسلامي شخصية النبي (صلّى الله عليه وآله)... إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)، (لِئَلاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ).

فدور الرسل ودور النبي هو إتمام الحجة على الناس.

فإذا كان المطلوب منا أن نعبد الله فما هي درجة العبادة، وما هو مقياس العبادة؟ يمكن أن نجد المقياس في سلوك النبي الذي كان يقف للعبادة طيلة الليل حتى تورمت قدماه، حتى نزل قوله تعالى:

(طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى إِلاَ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

فهذا يعني أن النبي وهو في قمة المسؤولية، تجده اكثر الناس عبادة وانقطاعاً إلى الله، فالقيادة تعني التزام المسؤولية، والإنسان القائد اكثر الناس مسؤولية من غيره، وليس القيادة مجرد لقب أو مجرد امتياز أو مجرد وسيلة للحصول على الامتيازات الشخصية.

القيادة في مفهوم الإسلام وكما تبرزها سيرة النبي تعني قمة المسؤولية، أو كلما كان تحمل الإنسان للمسؤولية أكثر كان أجدر بالقيادة، وكلما كان مستوى الإنسان أعظم من غيره فهو أكثر مسؤولية، ويجب أن يدفع ضريبة القيادة بتحمل مزيد من الآلام والصعوبات وتقديم التضحيات في سبيل المبدأ والقضية، ويكون في طليعة الأمة وفي الخطوط الأمامية في ساحات الجهاد والفداء...

كما قال الإمام علي (عليه السلام) عن رسول الله:

(كنا إذا حمي الوطيس لذنا برسول الله وكان أقربنا إلى العدو).

وفي الحديث: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، الأمثل فالأمثل).

القيادة مسؤولية وليست امتيازاً، هذه النقطة الثانية.

النقطة الثالثة: نريد أن نعرف من خلال السيرة النبوية تلك الروح التي بعثها النبي (صلّى الله عليه وآله) في جسد الأمة تلك الروح التي بعثها رسول الله في الحياة، فأصبحت هذه الروح هي الحاكمة على الحياة، يقول النبي:

(بعثت أنا والساعة كهاتين)

وجمع بين السبابة والوسطى، يعني أن رسالة النبي تحكم الحياة وتكون خالدة كخلود الزمن لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل، وتكون رسالة الإسلام متصلة بيوم القيامة، والإسلام يحكم الحياة والعالم.

فهذه الروح التي أطلقها النبي وحوّل تلك المجموعة الجاهلة المسحوقة المحرومة من الثقافة والعلم ومن كل شيء حوّلها بعد أقل من ربع قرن إلى حملة مشاعل الحضارة والحرية إلى العالم. فقد كانوا مجموعة من الحفاة المسحوقين كعمار، وأبي ذر، وسمية، وياسر، وصهيب، بلال، فما هي تلك الروح التي بعثها النبي فيهم.

هذه الروح التي تجسدت في ذلك الصمود الرسالي الذي أبداه (بلال) تحت سياط التعذيب الجاهلي على أيدي أسياد قريش، فكانوا يأتون به ويعرونه من ملابسه ويرمون به على رمضاء الصحراء العربية، ويحمون الصخور بالنار، ويلقونها عل صدره وظهره، ويلهبون جسده بالسياط وهو لا يزداد إلا إصراراً وصموداً، كلما زادوا في تعذيبه وتنكيله وطلبوا منه أن يكفر بمحمد (صلّى الله عليه وآله) أو يتراجع عن عقيدته، فلا يفتأ أن يردد كلمة: أحد، أحد أو نقرأ صورة أخرى تجسد هذه الروح أيضاً في هذه النماذج الرائعة من صحابة النبي:

جاء رجل من الأعراب إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) فآمن به وتبعه فقال: أهاجر معك، فأوصى النبي به بعض الصحابة.. فلما كانت غزوة خيبر غنم الرسول شيئاً فقسمه وأعطى لهذا الأعرابي حصة من الغنائم، فقال الأعرابي للرسول: ما على هذا اتبعتك. قال له رسول: على ماذا اتبعتني؟ قال: اتبعتك على أن أرمى هاهنا (وأشار إلى حلقه) بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال الرسول: إن تصدق الله ليصدقنك الله.

ثم نهض إلى القتال فأوتي به إلى النبي وهو مقتول وقد أصيب في منحره بسهم وقضى شهيداً، فقال رسول الله: (صدق الله فصدقه). يعني كان صادقاً مع الله وأعطاه الله حسب نيته.

فهذا الوعي بل قمة الوعي بلغ إليها هؤلاء بفضل الروح التي نفخها النبي فيهم.

ورواية أخرى عن (عبد الله الجموح) الرجل المعروف كان أعرج وأراد الخروج مع النبي إلى حرب أحد فحاول أولاده أن يمنعوه من الخروج، فاشتكى لرسول الله وقال: إني أرجو أن أعرج الليلة إلى الجنة، أو (أطأ بعرجتي هذه الجنة) فأذن له رسول الله وقتل هو وأولاده الأربعة وشقيق زوجته فجاءت أرملته بعد المعركة وحملت زوجها وأخاها وأولادها الأربعة على جمل ودفعت بهم إلى المدينة فقابلتها النساء واستقبلنها على باب المدينة، وسألنها عن الأخبار فقالت:

(أما رسول الله فبخير وكل مصيبة بعده تهون)، فسألنها: وما هذه الجثث، فقالت: هؤلاء أولادي وزوجي وأخي أكرمهم الله بالشهادة وأحملهم لأدفنهم.

هذه الروح التي جسدتها هذه المرأة المسلمة وعائلتها المؤمنة... وجسّدها عبد الله بن جموح، إنما هي دليل العظمة في سيرة الرسول ونحن بحاجة إلى مثل هذه الروح، ونريد أن ندرس السيرة النبوية بهذا المنطلق، أن نستلهم الروح من سيرة النبي ليكون كل واحد منا، أبا ذر، وعمار، وياسر، وتكون نسائنا، كسمية وامرأة عبد الله بن جموح وسائر النساء المجاهدات في تاريخنا الإسلامي.

نريد أن ندرس السيرة النبوية لنحصل على هذه الروح.

هذه الروح لو عادت إلى جسد الأمة الإسلامية لوجدنا أن واقعنا يتغير، وأن بلادنا تتغير، وأوضاعنا الاجتماعية والسياسية والوحدوية تختلف عما هي عليه الآن من تشرذم وتخلف وحرمان وجهل لأن في سيرة النبي يمكن أن نجد شفاء لأمراضنا الروحية ودواء لمشاكلنا الاجتماعية وتخلفنا.

كيف ندرس السيرة النبوية؟

مناهج البحث في السيرة

هناك عدة مناهج لدراسة سيرة الرسول (صلّى الله عليه وآله) هذه المناهج سبق وأن أتبعها أصحاب السيرة والمؤرخون الذين كتبوا عن حياة النبي الأعظم.

١ـ هناك مناهج يتبع أسلوب السرد التاريخي ولادة النبي، منشأه ـ ولادته يتيماً ـ وفاة أبيه وهو في بطن أمه كفالة جده عبد المطلب وعمه أبي طالب له ووفاة أمه آمنة وهو في السادسة من عمره وهكذا يتدرج المؤرخ في كتابة سيرة النبي حسب الأحداث الزمنية التي مر بها النبي الأحداث التي وقعت في حياته.

٢ـ وهناك منهج آخر يتبع أسلوب التحليل لحياة النبي وهذا هو المنهج التحليلي فهناك كتب في السيرة تحاول أن تسلط الأضواء التحليلية على سيرة النبي وتحاول أن تستنتج من كل حادثة هدفاً وفكرة تفيد القارئ المسلم.

٣ـ وهناك أسلوب ثالث ومنهج يحاول أن يأخذ جانباً معيناً من حياة الرسول مثل الجانب العسكري أو الجانب السياسي والقيادي والجانب الاجتماعي من حياة الرسول فيسلط الضوء على هذا الجانب، والسؤال ما هو منهجنا نحن لدراسة سيرة النبي حيث نريد أن ندرس سيرة رسول الله بطريقة تحقق لنا الأهداف التي ذكرناها في الدرس السابق:

أ. أن نعرف سر عظمة النبي ولا نكتفي بمجرد الإعجاب العاطفي بشخصية رسول الله بأن نحاول أن نتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر تقدماً وتطوراً وهو محاولة تلمس النقاط المضيئة في

شخصية الرسول.

ب. محاولة الاتباع والاقتداء بسيرة الرسول.

ج. الهدف الثالث أن نكتشف الروح الحضارية من خلال دراستنا لسيرة الرسول تلك الروح التي نفخها النبي في جسد الأمة وبعثها في الحياة وتلك الروح التي بثها النبي في نفوس بلال وعمّار وسمية وأبي ذر وأمثال هؤلاء الأفذاذ.

فكيف يكون منهجنا لدراسة سيرة الرسول (صلّى الله عليه وآله) إذن؟

يمكن أن نطرح ثلاثة مناهج موضوعية أو ثلاث تصورات لمنهج موضوعي لدراسة السيرة النبوية الشريفة:

- المنهج الأول:

أن نعرف الثوابت، أي تلك القوانين والسنن التي تجسدها لنا سيرة النبي وأن نعرف مناهج العمل والتحرك في سيرة الرسول أو بعبارة أخرى نريد أن نعرف أسباب الخلود وعوامل الاستمرار في سيرة رسول الله.

ممّا لا شك فيه انه تأتي هذه الدنيا شخصيات فذة غيروا وجه التاريخ وصنعوا حياة أمتهم من جديد وغيروا مجتمعاتهم التي عاصروها وعاشوا فيها.

هذه الشخصيات الخارقة أو الرجال الأفذاذ إنما هم من جنس البشر وفي قالب البشر ومن لحم ودم لكنهم يتميزون بما أوتوا من روح وإرادة وتصميم وقدرة على التغيير لم يؤتها سائر الناس هؤلاء يأكلون ويشربون وينامون ويستيقظون ويعيشون حياة إنسانية عادية ولكن حياتهم مليئة بالعطاء والبركة وإذا ماتت أجسادهم تبقى سيرتهم وتبقى آثارهم شعلة تضيء حياة البشرية من بعدهم.

هؤلاء لأنهم تمكنوا أن يفجروا مواهبهم الإنسانية داخل أنفسهم وتمكنوا أن يكتشفوا عوامل التغيير وعوامل التقدم بل وحاربوا عوامل التخلف وحاربوا الانحراف والتضليل وكل العقبات التي تؤخر حياة الإنسان وتشل حركة الحياة وهؤلاء لأنهم قاموا بهذا الدور الجهادي النضالي فتمكنوا أن يحولوا أولئك الفقراء المحرومين وأولئك الأشخاص المسحوقين في مجتمعهم إلى قادة للإنسانية

ومحررين للبشرية بعد مجيء هؤلاء العظماء ويتحولون إلى حملة مشاعل التحرر والحضارة.

أذن لا يمكن أن ننكر دور هذه الشخصيات والرجال الأفذاذ في التاريخ.

ما هو المحرك للتاريخ؟

في الحقيقة هناك نقاش بين علماء التاريخ وعلماء الاجتماع أي أن هناك سؤال حول من الذي يغيّر التاريخ؟ ومن الذي يصنع التاريخ؟ وما هي العوامل التي تحرك المجتمعات؟

لقد اختلفت النظريات في تحديد العامل المحرك للتاريخ والعنصر المغير للمجتمعات.

فثمة نظرية تقول شخص واحد أو عدة أشخاص هم الذين يغيّرون التاريخ ويحركون المجتمعات ولولا وجود أشخاص عظماء وقادة يأتون إلى المجتمع ويحركون ويقودون الأمة ويوجهون الناس ويفجرون طاقات الشعب فلا يمكن أن يحدث تغيير وتقدم في حياة الأمة ومن أولئك... المؤرخ الفرنسي (اميرسون)، هذا المؤرخ حين يؤرخ التاريخ الإسلام، فيحدد تلك اللحظة التي بدأ فيها تاريخ الإسلام، بهذه العبارة: (عندما التقت اليد الصغيرة ـ يد علي (عليه السلام) ـ بيد محمد (صلّى الله عليه وآله) تغيّر وجه التاريخ، فيحدد عامل التغيير في وجود هذين الرجلين العظيمين في تاريخ الإسلام).

هذه نظرية وهناك نظرية أخرى تقول: إن الأشخاص ليس لهم دور أساسي في تغيير التاريخ إنما الأشخاص هم عامل مساعد بل العامل المحرك للتاريخ، هو تحرك الأمة كلها ويقولون: مثلاً لو جئنا بأشجار وزرعناها في صحراء قاحلة فهل تتحول هذه الأشجار المثمرة في هذه الصحراء القاحلة إلى حديقة غناء أو روضة يانعة، كلا فما هو تأثير أشجار مثمرة في أرض جرداء يابسة؟ كذلك ما فائدة وجود أشخاص عظماء إذا كانت أرضية الإمرة غير مهيأة والأمة لن تتحرك بنفسها ولم تغير تاريخها، فمجيء أشخاص عظماء ووجود قادة أفذاذ لا يحرك الأمة ولا يغيّر التاريخ.

ما هو رأي الإسلام؟

الإسلام يجمع بين هاتين النظريتين فمن جانب يقول: (إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) فيعطي الدور للأمة لكي تتحرك وتغير نفسها وتصنع تاريخها من جديد لكن هذا لا يلغي دور الفرد ولا يجرد الإنسان عن المسؤولية.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) و(كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) وكل إنسان يتحمل مسؤوليته بمفرده ولا يتمكن أن يبرر تخليه عن المسؤولية بالظروف الاجتماعية وبأن الآخرين لم يتحركوا ولم يشجعوا.

الإسلام كذلك يحمل الفرد دوراً في تغيير الحياة وصناعة التاريخ.

خصوصاً إذا كان هذا الإنسان (رسولاً ومبشراً ونذيراً وسراجا منيرا).

فلا يمكن أن ننكر دور هذا الإنسان الرسول.

من خلال سيرة الرسول نعرف بأن الرسول إنسان متميز مجسد للقيم والمبادئ، صحيح أن الفرد وحده لا يغيّر التاريخ بل أن هناك مجموعة عوامل وقوانين وسنن طبيعية، لكن الفرد يجسد القوانين والسنن وإن علاقتنا بالأشخاص بمقدار تجسيدهم للقيم وتطبيقهم للقانون كما أن تقديسنا للرسول تقديساً لشخصه إنما هو تقديس للقيم التي جسدها في حياته وتقديس لتلك المبادئ والفضائل التي كان رمزاً وقدوة لها وعلينا أن ننظر إلى تلك الثوابت في حياة الرسول.

الرسول له جانبان، جانب بشري وهذا الجانب محدود بولادة الرسول ووفاته.

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

والجانب الآخر هو الجانب الثابت في حياة الرسول جانب الرسالة والقضية جانب الفكرة والمبدأ فعلينا أن نكتشف تلك الثوابت والسنن وعوامل الخلود والاستمرار في رسالة النبي لكي نستفيد منها.

قد يموت الرسول جسماً لكن بالرسالات لن يموت الرسول.

نبي الرحمة:

مثلاً من الثوابت والسنن ومن قوانين الحياة الإنسانية في سيرة النبي والتي تشكل سر عظمة النبي وخلوده، الرحمة. (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)، (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

الرسول صورة من الرحمة الإلهية كما يقول بنفسه: (إنما أنا رحمة مهداة)

هدية الله إلى البشر رسول الله، حقاً كان الرسول كتلة من الرحمة، كان رحمة للمؤمنين.

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

ليس فقط كان رحمة للمؤمنين بل كان رحمة حتى لأعدائه الكافرين الذين حاربوه فكان كلما خرج يدعون الناس إلى التوحيد كان يتبعه الكفار ويأمروا الصبيان والجهال ليتبعوه بالسب والإهانة ويرموا عليه الأحجار والقذارة.

فإذا انتقل عنهم وجلس في فناء الكعبة رفع يديه إلى السماء بالدعاء: (اللّهم اهد قومي فانهم لا يعلمون)، بل كانت رحمته لكل كائن، فمرة كان النبي نائماً فلما استيقظ من نومه رأى قطة نامت على طرف ردائه وهي غارقة في نوم عميق فلم يشأ النبي أن يقطع على هذه القطة نومها اللذيذ بل جلس وانتظر مدة من الزمن حتى تستيقظ بنفسها فلما انتبهت وقامت ومشت قام النبي إلى عمله.

ومرة كان النبي في طريقه مع بعض الصحابة فرأى قطة تريد أن تشرب الماء فكانت تلحس قعر الإناء بلسانها فجاء النبي وأمال طرف الإناء ليجتمع الماء فتشرب القطة من الماء حتى ترتوي، فقال الأصحاب للنبي: نحن نكفيك هذا، قال: لا بنفسي أحب أن أساعد هذه القطة على شرب الماء فلما ارتوت القطة من الماء وانصرفت، انصرف النبي.

أذن الرحمة سنة من سنن الحياة وقانون ثابت والرحمة تسري في كل جوانب الحياة فلولا الرحمة لم تحن الأم على طفلها، لأن الله تبارك وتعالى جعل ذلك الوعاء الذي يتكون فيه الجنين وسماه الرحم واشتقه من الرحمة، فحنان الأم، صورة من الرحمة الإلهية.

يقال أن موسى (عليه السلام) في يوم من الأيام مرّ على امرأة كانت تمسك في حضنها ولداً صغيراً فكان ولدها أسود اللون وسخاً قبيح المنظر ولم تكن ملامحه تبعث الإنسان على الميل إليه ولكن هذه الأم كانت قد أخذت طفلها وتضمه إلى صدرها وتقبله وتغرقه بقبلات حانية والطفل يبكي ويصرخ ولا يرضى أن يسكت والأم تحاول إرضاء الطفل بالقبلات والحنان المتزايد عليه فتعجب موسى ولفت نظره هذا المنظر فقال يا رب: هذا ليس طفلاً جميلاً ووديعاً حتى تحن النفس إليه أو يميل القلب إليه فكيف صارت الأم هذه وبأي دافع تحن على الطفل وتقبله وتعطف عليه وتعامله

بهذا الحنان والرأفة، فقال الله لموسى:

يا موسى هل تريد أن تعرف السبب؟ قال نعم يا رب! قال: اصبر هنيئة فوقف موسى لكي يرى هذه الأم ماذا تصنع فما هي إلا لحظات وإذا بالأم تغضب على الطفل غضباً شديداً فتأخذه من حضنها وترميه بعيداً عنها وتقوم وتذهب عنه كأن لم يكن هذا طفلها ولم تكن قبل لحظات تعامله بذلك الحنان والطفل كان يصرخ ويبكي ويستغيث ويستنجد والأم لا تلتفت إليه لكن مرت لحظات على هذه الحالة وإذا بالأم بعد ما سارت خطوات ترجع فجأة وتركض مهرولة باتجاه الطفل وتأتي إليه تحمله وتحضنه بحرارة وتقبله وتمسح دموعه وتعتذر منه وتعامله بكل رافة وحنان، فقال الله يا موسى:

أنا وضعت الرحمة في قلب الأم فتحن عن طفلها ولما نزعت الرحمة من قلبها لحظة واحدة رأيت أنها كيف تركت الطفل وكأنها لا تعرفه.

فالرحمة قانون ثابت وفي سيرة الرسول نجد ملامح من هذه الرحمة كما نجد هناك قيماً وفضائل ومبادئ أخرى فهذه ليست أمور زائلة ولا تتغير ولا تتبدل ولا يغيرها الزمن بل هي سنن إلهية ثابتة.

(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)

ونحن من خلال دراستنا لسيرة النبي نريد أن نكتشف هذه القيم والمبادئ وهذه الثوابت حتى تكون درساً لنا ومنهجاً لحياتنا هذه النقطة الأولى.

مدرسة السيرة النبوية:

أما النقطة الثانية: أن نتتلمذ على سيرة النبي أن نطرح الأسئلة التي نشعر بها ونطرح مشاكلنا وحاجاتنا التي نعانيها ففي سيرة النبي دواء لمشاكلنا وفي السيرة النبوية نجد الحلول والمناهج التي تنفعنا في حياتنا العملية يجب أن يكتب كل جيل سيرة النبي من جديد.

وكل مرحلة يمر بها الإنسان والأمة الإسلامية يجب أن تكون هناك محاولة جديدة لدراسة سيرة النبي على ضوء حاجاتنا المرحلية التي تعاني منها أمتنا فنحاول أن نعرض واقعنا على سيرة النبي

فهذه الروح روح التتلمذ على سيرة النبي وروح البحث عن حلول لمشاكلنا من خلال سيرة النبي يجب أن نطبق واقعنا على سيرة الرسول بدل أن نجعل سيرة الرسول جزءاً من واقعنا فلا نقر أسيرة الرسول بعقلية منغلقة وبعقلية تبريرية وانهزامية وبروح مستسلمة.

إنما يجب أن نقرأ سيرة الرسول ونقرأ حياة الرسول بروح جديدة وبعقلية متفتحة ونتجرد من واقعنا المتخلف ولو فسرناها حسب عقلياتنا الضيقة لأصبحت هذه الرسالات جزءاً من واقعنا المتخلف وأصبحت هذه الرسالات تغطية وتبريراً لواقعنا الفاسد وليس من الصحيح.

أذن الخلاصة:

نصل إلى طريقتين في دراستنا لسيرة النبي (صلّى الله عليه وآله):

المنهج الأول: أن نحاول التعرف على تلك النقاط الثابتة والقيم والسنن الاجتماعية وقوانين التاريخ وعوامل تغيير المجتمعات ونتعرف من خلال سيرة النبي على تلك القيم التي جسدها النبي وهذا هو الجانب الخالد والثابت لشخصية الرسول ويشكل عوامل خلود النبي وسر استمراره رسولاً وقائداً ومعلماً للحياة إلى يوم القيامة.

والمنهج الثاني: أن نحاول التتلمذ على سيرة النبي ونحاول أن نعرض واقعنا ونطابق واقعنا بسيرة النبي ونطابق أنفسنا بما يريده النبي منا حتى نكتشف من سيرة النبي ذلك الدواء والعلاج لما نعانيه من واقع متخلف ومشاكل اجتماعية ومعاناة نفسية وأمراض روحية واجتماعية من هنا يكون الرسول شهيداً وشاهداً على مسيرتنا التي نريد أن نبدأها لإصلاح واقعنا.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً).

فنحن نتحمل مسؤولية التغيير ولكن نهتدي بهدى الرسول ومنهج التغيير من سيرة الرسول فكيف بدأ الرسول مسيرته الرسالية وكيف تمكن أن يغيّر ذلك المجتمع الجاهلي الذي بعث فيه، في الدروس القادمة سنتعرف على مناهج أخرى في دراستنا لسيرة النبي.

سيرة الرسول وعمليات التحريف

الفاصل الزمني الذي يفصل بيننا وبين عصر الرسول يشكل جداراً سميكاً عبارة عن (١٤٠٠) سنة بما رافقتها من الظروف المتغيرة أو تطور وسائل الحياة والمستجدات التي طرأت على علمنا حتى اليوم، وبما تحمل هذه القرون في طياتها كثيراً من ظروف الانتكاسة التي مر بها العالم الإسلامي بالذات، فهل يشكل هذا الفاصل الزمني عقبة أمام فهمنا الحقيقي لسيرة الرسول؟ أن سيرة الرسول بصورة خاصة تعرضت لمحاولات الطمس وعمليات التشويه والتحريف.

فهذه الفاصلة الزمنية هل تمنع من تطبيق سيرة الرسول على واقعنا مع أن ظروف الحياة قد تغيرت وتطورت فلم يكن في عصر الرسول وسائل المواصلات على شكلها المتطور في هذا العصر مثل الكهرباء والذرة ولا هذه الاكتشافات العلمية!

بالنسبة إلى النقطة الأولى وهي أن الفاصل الزمني بيننا وبين عصر الرسول يحمل في طياته حجباً كثيفة من محاولات الطمس محاولات الإخفاء على آثار الرسول، ففي حديث عن الرسول (صلّى الله عليه وآله) يبين أن محاولات الإخفاء والتشويه والتحريف بدأت تتجه إلى سيرة الرسول وكلماته والرسول لا زال على قيد الحياة: (لقد كثرت عليّ الوضاعة فمن افترى عليّ حديثاً فليتبوأ مقعده في النار)

هذا في زمن الرسول، والرسول لا زال بين ظهرانيهم فقد كان يحاول البعض أن يفتري على الرسول وفي الأجيال المتعاقبة بعد الجيل الرسالي حيث تزايد محاولات التشويه وتزداد ظروف الابتعاد عن آثار الرسول، ولا سيما قد سيطر على مصير الأمة الإسلامية حزب طالما تآمر ضد الإسلام وكاد عليه الدسائس عندما كان يشعر بالتنافس معه على سيادة الجزيرة العربية، فلما انتصر الإسلام أظهر هذا الحزب الأموي إسلامه علناً ليواصل كيده وتآمره سراً وهذه المرة من مركز الحكم والسيطرة باسم الإسلام أيضاً.

هذا الحزب الأموي منذ بدأ تسلطه على الأمة الإسلامية كان يهدف أن يعيد الرسالة إلى الجاهلية ويحول الخلافة إلى ملكية وراثية والحكم الإسلامي العادل إلى ملك عضوض وأن يعيد أمجاد

الجاهلية، لهذا أراد أن يقدم المبررات الشرعية لتصرفاته المنحرفة عن الإسلام فماذا يفعل؟

طبعاً بدأ بإيجاد جهاز إعلامي لتضليل الناس وتحريف الأفكار وتشويه الحقائق حتى سيرة الرسول وكلمات الرسول وآثار الرسول لم تسلم من محاولات التشويه والتحريف من قبل هذا الجهاز الإعلامي.

فهذه العملية عرضت سيرة الرسول المزيد من الطمس والإخفاء فماذا أخفي من آثار رسول الله هو الكثير الكثير وما وصل إلينا منه هو اليسير اليسير.

فكيف نتصرف أمام هذه المشكلة؟ وكيف نتعامل مع هذه الندرة ممّا وصلنا من آثار رسول الله ثم هذا الذي وصلنا فيه كثير من الدس والتشويه والتحريف ولا يؤمن عليه من عمليات الوضع والاختلاف التي فرضتها الظروف السياسية التي مرت على الأمة الإسلامية في عصر الردة الجاهلية في عصر تسلط الأمويين ومحاولاتهم الجادة للقضاء على رسالة وآثار رسول الله.

هذا جانب من المشكلة التي يشكلها الفاصل الزمني بيننا وبين عصر الرسول، الجانب الثاني من هذه المشكلة قلنا تغير الظروف واختلاف ظواهر الحياة والتعقيدات التي تميز حياتنا المعاصرة.

كيف نواجه مشكلة الفاصل الزمني؟

الحقيقة أن هذا الفاصل الزمني لا يعني بشكل من الإشكال أننا نستغني يوماً من الأيام عن سيرة الرسول مهما كان الفاصل الزمني بيننا وبين عصر الرسول فهل يستغني الإنسان عن الشمس يوماً بحجة أن الشمس صار لها زمن طويل وهي تشرق على الأرض أو يستغني عن الطعام والهواء والأوكسجين كذلك لا يمكن أن يستغني عن تلك القيم التي جسدها رسول الله.

هل يستغني الإنسان يوماً عن الخبز بحجة أن الخبز اصبح موضة قديمة كان يمارسها الإنسان منذ أن ولد والى يومنا هذا، إذن مرور الزمن على شيء معين أو تغيّر الظروف لا يعني استغناء الإنسان عن ذلك الشيء كذلك لا نستغني عن تلك القيم مهما تغيرت الظروف أو ظواهر الحياة وتطورت أساليب العصر الحاضر لأن الرسول رسم لنا طريق ومنهجاً ورسالة شاملة لكل العصور ولكل الأجيال.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ كَافَّةً لِلنَّاسِ)

وهناك رواية عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ينقلها أحد أحفاده وهو الإمام الباقر (عليه

السلام) قال جدي رسول الله:

(أيها الناس حلالي حلال إلى يوم القيامة، وحرامي حرام إلى يوم القيامة، إلا وقد بينها الله في الكتاب وبينتها لكم في سيرتي وبينها شبهات الشيطان، وبدع تكون بعدي من تركها صلح له أمر دينه ومن تلبس بها وقع فيها ومن تلبس بها واتبعها كان كمن رعى غنمه قرب الحمى ومن رعى ماشيته قرب الحمى نازعته نفسه إلى أن يرعاها في الحمى إلا وأن لكل ملك حمى وأن حمى الله عز وجل محارمة فتوقوا حمى الله ومحارمه).

فإذن، رسالة الرسول خالدة لكل العصور ولكل الأجيال وسلوكه وسيرته منهج لكل الإنسانية ولا زالت الشعوب بحاجة إلى أن تستلهم من سيرة رسول الله ذلك المنهج الذي ينير طريقها وينير درب جهادها ضد الطغاة، ونتمكن هنا أن نذكر مثالين للقيم التي جسدها رسول الله بسيرته، وتشكل هذه القيم تلك الثوابت والمبادئ، التي تصلح منهجاً لكل جيل وعصر.

كيف ننقل سيرة الرسول إلى هذا العصر؟

كيف نتصرف رسول الله لو كان يأتي إلى الحياة في عصرنا؟

كيف كان يتصور ويعمل وأين كان يذهب؟

هل كان يذهب إلى قصور الطغاة، هل كان يذهب إلى أبواب السلاطين والحكام، هل كان يقف على أعتاب الطواغيت ويطلب منهم الشرعية ويقدم لهم مراسيم التملق كما يفعل وعاظ السلاطين في هذا الزمان حيث يذهبون إلى قصور السلاطين يتسكعون على أعتاب الطغاة ويقدمون لهم آداب الاحترام والتملق ويضفون على حكمهم وجرائمهم صبغة الشرعية، رسول الله واجه أمثال هؤلاء الطغاة واجه طغاة الروم وطغاة الفرس كان يواجه الملوك والحكام ويبعث الرسائل إلى هرقل ملك الروم وكسرى ملك الفرس والمقوقس ملك مصر ويدعوهم إلى الإسلام ويدعوهم إلى احقاق العدالة والحرية.

٢ـ نجري مقارنة بين طريقة حياة النبي وسلوكه كقائد أمة ورئيس دولة وبين حياة البذخ والترف والفساد الذي يعيشه الملوك والأباطرة والأكاسرة والقياصرة في عصر النبي، فحياة النبي أعظم درس وأبلغ موعظة لحكام هذا العصر والترف والبذخ والإفراط في المراسيم والتشريفات التي يعيشها كل حاكم ورئيس وملك إلى جانب الفقر والحرمان والطبقية المقيتة التي تعانيها الشعوب والناس المحرومين وهذه قيمة خالدة أيضاً نستفيدها من سيرة النبي ومهما تغيرت الظروف

والمظاهر، إلا أن هذه القيمة يجب أن تحكم الحياة ويتخذها الحكام والمسؤولون منهجاً لسلوكهم ومراسيمهم ويقتدوا بسيرة الرسول الأعظم.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ)

أولاً: لننقل لكم صورة عن حياة هذا الإنسان ثم ننقل صورة عن حياة القياصرة ولأكاسرة وملوك الشرق والغرب الذين كانوا في عصر الرسول، لنجري مقارنة بين حياة الرسول وبين حياة أولئك، لنستخرج من هذه المقارنة قيمة مقدسة ومنهجاً نقدمه إلى حكام هذا العصر ليكون سلوك رسول الله مشعلاً ومنهجاً لمن أراد أن يسير ويقتدي بسلوك رسول الله ولكي يكون سلوك رسول الله سيفاً وسلاحاً بأيدي المستضعفين لتحدي المستكبرين لنقرا الصورة الأولى: عن أبي هريرة قال:

(ما شبع رسول الله ثلاث أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا)

وقال: (ما اجتمع عند رسول الله إدامان إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر، ما كان يجتمع لرسول الله لوناً لقمة في فمه، إن كان لحماً لم يكن خبزاً وإن كان خبزاً لم يكن لحماً، هذا أكل رسول الله).

وعن انس بن مالك قال: جاءت فاطمة عليها السلام بكسرة خبز لرسول الله، فقال ما هذه الكسرة، قالت قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال: (أما أنه أوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث أيام) ثم قال رسول الله: (إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة، وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملئى، وما ترك المرء أكلاً يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة، فسلوك رسول الله كان درساً لنا كان منهجاً لنا كيف أن الإنسان يريّض نفسه على عدم الشبع وعلى عدم التعلق بملذات الحياة حتى لا تتحول الحياة إلى هدف عند الإنسان.

في رواية أخرى أخرج أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال: دخلت على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو على حصير قال: فجلست وإذا عليه ازار وليس عليه غيره وإذا الحصير قد اثر في جنبيه ـ يعني انطبعت صورة الحصيرة على جسد الرسول ـ وإذا أنا بقبضة من شعير نحو صاع وقرص في جانب الغرفة ـ يعني هذا أثاث رسول الله ـ وإذا أهاب معلق ـ جلد كبش معلق ـ هذا كان الأثاث الذي كان يوجد في بيت الرسول، وهو رسول الله وسيد المرسلين وقائد أمة ورئيس دولة ومجتمع، فابتدرت عيناي فقال رسول الله ما يبكيك يا بن الخطاب، فقال يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها ما أرى وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانتك وهذا أثاث

بيتك قال يا بن خطاب: (أما ترضى أن تكون لنا الآخرة وتكون لهم الدنيا)

هذه الصورة، والصورة الثانية التي نقلها لنا المؤرخون عن طريقة البذخ والترف التي كان يتبعها ملوك ذلك العصر وطواغيت الروم والفرس يقول المؤرخ الأوروبي (درايد): لما بلغت الدولة الرومية من القوة الجريئة والنفوذ السياسي أوجها ووصلت بالحضارة إلى أقصى الدرجات وهبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى اسفل الدركات بطر الرومان وفي معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً وكان مبدئهم، إن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر يحتف بها خدام في ملابس جميلة خلابة وغادات رومية حسناء ويزيد من نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع وما يزالون يتصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً وقد أدرك هؤلاء الذين دوخوا العالم إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة والمنعة.

أما الفرس فقد كان الأكاسرة ملوك فارس ينظرون إليهم كآلهة وفوق القانون وفوق البشر وقد استحوذت على الناس في الإمبراطورية الفارسية حياة البذخ والترف وكان لكسرى برويز (٢١٢ ألف امرأة وخمسين ألف جواد)، هذه الصورة التي ينقلها لنا التاريخ عن حياة البذخ والترف والإسراف التي كان عليها ملوك ذلك العصر وطواغيت الشرق والغرب في كل مكان.

يجب أن نعرض سيرة رسول الله بطريقة تكون مشعلاً ونبراساً ينير طريق أجيالنا الصاعدة وتتخذ منها شعوبنا سلاحاً فعالاً لشهره بوجه الطغاة والحكام الذين يتجبرون ويتغطرسون ويتخذون عبادة الله خولاً ومال الله دولاً، وهم يدعون زيفاً ونفاقاً بأنهم مسلمون والإسلام منهم براء.

فلا زالت سيرة رسول الله حية والقيم التي جسدها في سلوكه نحتاج إليها اليوم اكثر من أي وقت مضى.

التوحيد محور السيرة النبوية

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

رسول الله (صلّى الله عليه وآله) معلم التوحيد، التوحيد هو: الخط البياني للسيرة النبوية، والخلفية التي كانت وراء ك خطوة من خطوات الرسول، وكل حركة وسكنة، وكل لمحة أو لفتة هو:

التوحيد، بل أن التوحيد هي النقطة المركزية في هذا الكون، والنواة الأولى التي يقوم عليها نظام الحياة، فكل ذرة من ذرات الكون تحكي عن نظام التوحيد.

من الذرة التي هي اصغر جزيء في هذا الكون إلى المجرة يحكمها نظام واحد فالنظام الذي تقوم عليه الذرة هو نفس النظام الذي تقوم عليه المجرة لأن المنظم واحد والخالق المبدع واحد.

فواعجبا كيف يعصي الإله	**أم كيـــف يجـــحده الجاحد**
ولله فـــي كل تحريكة وفي	**كـــل تســـــكينة شـــــــاهد**
وفي كـــــل شــــيء له آية	**تـــدل علــــى انــــه واحـــد**

إذن التوحيد هي الروح التي تسري في جسد هذا الكون، كما أن التشريعات السماوية ورسالات الأنبياء تأتي مطابقة للنظام التكويني وهدفها تجسيد نظام التوحيد في الحياة المعلية والحياة الاجتماعية للإنسان لكي تكون حياة الإنسان موافقة لمسيرة الكون وسير الإنسان في هذا التيار العام الذي تسير فيه كل كائنات الطبيعة.

وفي السيرة النبوية نجد لمسات التوحيد واضحة على كل جانب من جوانبها فأولاً: هذا النجاح الباهر الذي حققه رسول الله في دعوته دليل واضح على ذلك التوفيق الإلهي والإرادة السماوية التي كانت تدفع بهذه المسيرة نحو النجاح فالحركة التي فجرها رسول الله كانت حركة سياسية اجتماعية قائمة على أساس عقائدي رصين، هذا ما أدركه أعداء الرسالة، متمثلاً في الموقف العنيد الذي وقفوه من الرسالة والرسول، وثاني: إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وصموده وإصراره وتفانيه في سبيل الرسالة كان أيضاً دليلاً على انه ينطلق من منطلق مبدئي عقائدي ولم يكن الاختلاف بين رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وطغاة قريش اختلافاً شكلياً على ترك الأصنام

أو نبذ الأوثان ولو كانت المسألة تنتهي عند هذا الحد لكانت المسألة تنتهي عند هذا الحد لكانت المسألة بسيطة لكن من ناحية هذا الإصرار والعناد الذي اتخذه الجاهلون وعتاة قريش إلى درجة إعلان الحرب المسلحة وتجنيد كل الطاقات والقوى لإفناء الرسالة ومن ناحية أخرى نلاحظ الصمود الرسالي الذي تجسد في حياة رسول الله في سلوك المسلمين الأوائل من أصحاب رسول الله كان دليلاً على تلك الخلفية العقائدية والمنطلق التوحيدي الذي كان ينطلق منه الرسول وأصحابه.

فنقرأ صوراً من هذه المواقف التي حدثت بين أعداء الرسالة ممّا يؤكد أن الطرفين كانا يدركان أهمية القضية وجديتها وحجمها المستقبلي.

روي ابن إسحاق لمّا مشوا إلى أبي طالب وكلموه وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب وفي رجال من أشرافهم جاءوا إلى أبي طالب وقالوا: (يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فخذ لنا منه وخذ له منا ـ يعني أنقل له وجهة نظرنا وأنقل لنا وجهة نظره ـ ليكف عنّا ولنكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه).

فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم)

فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات قال: تقولون (لا إله إلا الله) وتخلعون ما تعبدون من دونه، فصفقوا بأيديهم وأما هذه الكلمة فلا، لأنهم يدركون مغزى هذه الكلمة وأن هذه الكلمة لا تنتهي عند مجرد ترددها بل إنها تتطلب منهم أن يتنازلوا عن مصالحهم الشخصية وعن أفكارهم الجاهلية ويتنازلون عن ظلمهم واستغلالهم للمستضعفين وبالتالي يخضعوا لنظام اجتماعي جديد ولما لم ينفع الحوار مع النبي ولم يؤد إلى نتيجة توسلوا بطريقة أخرى وهي طريقة الإغراء وعرض الإغراءات السخية على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لاستدرجوه إلى مواقفهم ويثنوا عن طريقته ودعوته.

جاء عتبة بن ربيعة يوماً إلى رسول الله يعرض عليه العروض السخية ويعرض عليه الملك إليه مستعلياً بإيمانه معتزاً بإسلامه:

(ما جئتكم لما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم والملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوا عليه أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم).

ولما فشلت سياسة الإغراء ووسائل التطميع ولم تؤثر العروض والمغريات على رسول الله.

فجاءوا هذه المرة وأرادوا أن يتفقوا مع رسول الله على حل وسط حتى يرضوه ويخففوا من مواقفه الرسالية المتشددة تجاههم: (فاقترحت قريش على النبي أن يعبد آلهتهم شهراً ليعبدوا الله شهراً آخر فنزل القرآن الكريم بذلك الموقف الحاسم الذي لا يقبل الحلول الوسط ولا يقبل المهادنة مع أعداء الله أو المساومة معهم على أنصاف الحلول، بل جاء القرآن بموقف رسالي حاسم في سورة (الجحد) أو (الكافرون).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

فحاولوا بشتى الطرق الممكنة ليثنوا النبي عن دعوته ورسالته.

وهذه المرة حاولوا عن طريق التهديد والتعذيب والتنكيل لأصحابه المؤمنين، فأوعزت دار الندوة إلى كل قبيلة من القبائل لتوعز إلى أفرادها بأن ينظروا إلى كل من يصبوا إلى دين محمد (صلّى الله عليه وآله) فيأخذوه ويسلموه إلى قبيلته لتعاقبه وتحبسه وتمنعه من التوجه إلى الدين الجديد وبدأت حملات الاعتقال والمطاردة لتبتلع الشباب المؤمن من أبناء القبائل وبدأ المستضعفون من صحابة رسول الله يتعرضون لأقسى ألوان التعذيب والتنكيل من قبل عتاة قريش (بلال، وعمار بن ياسر ووالده ياسر، وسميّة، وصهيب، وبقية المستضعفين من أصحاب الرسول) فكانوا يلهبون صدورهم بالسياط ويلقون بأجسادهم العارية على تلك الصحراء الملتهبة بحرارة الشمس فما كانوا يزدادون إلا إصراراً وصموداً وثباتاً على عقيدة التوحيد وكان بلال ـ وهو يتضور ألماً تحت سياط التعذيب ـ يردد كلمة: أحد، أحد، أحد.

فهذه عقيدة التوحيد والتي تجسدت في هذا الصمود الرسالي في سلوك النبي وفي سلوك أصحابه الكرام، كما أن أعداء الرسالة من الكافرين والمستكبرين الذين تضررت مصالحهم من دعوة النبي كانوا يدركون تلك الخلفية التي تعنيها كلمة التوحيد.

جاء في كتب السيرة أن النبي قصد قبائل العرب في منازلهم وتوجه إلى كل فرع، من فروعهم يدعوهم إلى عقيدة التوحيد فذهب إلى بني عبد الله فرع من قبيلة كليب وقال يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم وقد اخترتكم على من سواكم ثم عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا منه، كما اتجه إلى مجموعة القبائل التي كانت تأتي إلى الحج في أيام الموسم فكان النبي يستغل الموسم لعرض دعوته على القبائل العربية فذهب إلى حجاج بني عامر وبني صعصعة وعرض عليهم الإسلام ومناصرته فقال رجل منه يدعى بصيرة بن عبد الله بن سليمة: (والله إنني لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ـ يعني إن لهذا الرجل مستقبلاً عظيماً فإذا أتحالف معه الآن يفيدني في المستقبل لأنه سوف يكون له شأن عظيم ـ ثم جاء إلى النبي لكي يساومه فقال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون الأمر لنا من بعدك؟

فقال له النبي: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء فقال له:

أفتستهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا فيك.

فهذا النوع من الناس كان يريد أن يحصل من دخوله في الإسلام على مصلحة شخصية أو مكسب سياسي لكن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان منطلقه هو التوحيد لله فماذا يعني التوحيد؟

في الحديث الشريف: (الإيمان اعتقاد بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان).

إن فكرة التوحيد ليست مجرد نظرية باردة ترقد في الذهن أو فكرة تعيش في الفراغ بل أن عقيدة التوحيد يجب أن تتحول إلى سلوك عملي وولاء للقيادة الإسلامية وتسليم لنظام السماء وعلى الإنسان أن يوحد الله في كل مجال من مجالات الحياة في علاقته الاجتماعية في نظامه الاقتصادي ومنهاجه التربوي في حكومته وفي كل لشأن من شؤون حياته الفردية والاجتماعية إنما يخضع لله ولقانون الله.

يوم العقبة حيث تم اللقاء بين الرسول وبين أهل المدينة وعرض عليهم النبي دعوته وطلب منهم مناصرته وأخبرهم بهجرته إليهم في المستقبل كان من أمرهم هذا الحوار الذي جرى بين مجموعة من الأنصار ـ أي أهل المدينة ـ:

قام العباس بن عابدة وقال: (يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن والله أن فعلتم خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون

بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو خير الدنيا والآخرة).

وأخرج احمد من حديث العقبة في السنة الثانية قلنا ـ أي الأنصار ـ للنبي: يا رسول الله علام نبايعك. قال: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا في الله ولا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني ممّا تمنعون به أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة).

فقمنا إليه وأخذ بيده اسعد بن زرارة وهو من أصغرهم وقال: رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم إنه رسول الله وإن إخراجه اليوم مناوئة للعرب كافة تقتل خياركم وتعضكم السيوف فأما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله وأما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله قالوا: أمط عنا يا سعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً.

إن عقيدة التوحيد تغير حياتك جذرياً وتقيم علاقاتك الاجتماعية على أساس التوحيد وتضرب علاقات السابقة وارتباطاتك العائلية والقبلية ولا يقيم الإسلام لها وزناً إذا تعارضت مع مسيرة العقيدة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).

يقول الإمام علي (عليه السلام): (كنا على عهد رسول نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم وجداً في جهاد العدو).

وجاء رجل إلى رسول الله فمد رسول الله يده ومد الرجل يده ليبايع، فقال الرجل: علام أبايعك؟ قال تبايعني على أن تقتل أباك فبايع رسول الله.

التوحيد نظام اجتماعي:

فالإسلام يبني العلاقات الاجتماعية على أساس التوحيد، وأن التفاضل بين أفراد المجتمع الإسلامي يكون بمقياس التقوى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى).

فيضرب الإسلام كل ألوان التمايز الطبقي أو التفاضل بمقياس المال والنسب والدم والتراب والارتباطات القبلية والمحسوبيات العائلية فهذه كلها قيم جاهلية ومقاييس مادية زائلة ليس لها قدسية.

بل في الإسلام قيمة واحدة تستحق التقديس وهي قيمة التوحيد والتقوى.

نظر أبو سفيان يوماً إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) جالساً وأتباعه قد شكلوا من حوله، فرأى فيهم بلال الحبشي وصهيب الرومي وأبو بكر القرشي وعلى الهاشمي وسلمان الفارسي فتعجب من هذا الخليط وتعجب من هذا الذوبان في بوتقة التوحيد التي تمكنت من أن تذوب الفوارق القبلية والعرقية والعنصرية وجعلت من هذه العناصر والانتماءات المتضاربة عرقياً وطبقياً كتلة واحدة.

وبعد اثر من آثار التوحيد وهو نسف العلاقات، الاجتماعية القائمة على أساس التمييز الطبقي والعرقي واللوني وبناء وحدة إيمانية متراصة تذوب فيها كل الفوارق والحواجز ويكون الناس سواسية كأسنان المشط.

إن سيرة الرسول (صلّى الله عليه وآله) تجسد مفهوم التوحيد في جوانبه الاجتماعية، توحيد الله في العلاقات، توحيد في النظام الاجتماعي ونظام الحكم والإدارة.

التوحيد في القانون:

سرقت امرأة من بني مخزوم وهي قبيلة من قبائل العرب المعروفة فجاءوا بها إلى الرسول ليطبق عليها قانون الله وهو أن يقطع يدها لأنها سرقت فشفعوا زيد بن حارثة وطلبوا منه أن يتوسط عند رسول الله وقال لزيد: (ويلك يا زيد أتشفع في حد من حدود الله) ثم صعد المنبر وقال:

(أيها الناس لقد أهلك الله من كان قبلكم من الأمم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والله لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها).

الكل أمام القانون سواء، الكل أمام الله يحشرون على صعيد واحد لا فرق بين غني أو فقير أو شريف أو وضيع أو كبير أو صغير أو نبي أو ولي.

التوحيد في العلاقات الدولية:

كانت حركة الرسول حركة سياسية قائمة على أساس عقائدي هو التوحيد ولم تنجح اية حركة سياسية في تاريخ البشرية كما نجحت دعوة النبي ففي أقل من ربع قرن أقام النبي دولة الإسلام وبدأ يراسل ملوك الشرق والغرب ويقيم علاقاته الخارجية على أساس النظام الإسلامي الجديد!

أخرج البيهقي عن ابن إسحاق قال: بعث رسول الله محمداً بن أمية الزمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وكتب معه كتاباً:

(بسم الله الرحمن الرحيم ـ، من محمد رسول الله، إلى النجاشي الأقحم ملك الحبشة السلام عليك، فأني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفر ومعه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فخذهم ودع التجبر فأنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وبلغت ونصحت فأقبل نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى).

وأخرج البخاري عن ابن عباس حديث أبو سفيان مع هرقل وفيه نص النبي إليه:

(بسم الله الرحمن الرحيم... من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين)

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ).

وأخرج ابن الحديد من طريق ابن إسحاق نص رسالة الرسول إلى كسرى وهي.

(بسم الله الرحمن الرحيم... من محمد رسول إلى كسرى عظيم الفرس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإنه محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فإن تسلم تسلم وإن أبيت فعليك إثم المجوس).

وأخرج البيهقي نص رسالة إلى أهل نجران ورسائل مشابهة إلى أهل اليمامة والى المنذرين ساوي عظيم البحرين والى الحارث بن شهد الغاني والى الحارث بن عبد كلال الحيدري والى ملكي عمان ابن الجلندي وغيرهم.

شخصية الرسول وأبعادها الإنسانية

- **الرسول الإنسان:**

قال الله العظيم في محكم كتابه المبين:

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً).

إن شخصية الإنسان تبدأ بالتكون منذ الولادة بل تتحكم فيه عوامل الوراثة كما هو واضح، إلا أن عامل التربية يبقى عاملاً قوياً في تكوين شخصية الإنسان وبالنسبة إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) نجد أن القرآن الكريم أشار إلى عامل الوراثة والى أن شخصية النبي إنما هي خلاصة لشخصيات آبائه وأجداده من الرسل كإبراهيم وإسماعيل ومن حمل في صلبه نطفة هذا الكائن.

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ).

وجاء في تفسير هذه الآية (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) أي انتقالك في أصلاب الآباء الساجدين الموحدين لله تبارك وتعالى، وفي الأحاديث توجد إشارة إلى أهمية العامل الوراثي باعتبار أن نطفة الجنين تتكون أوّل ما تتكون من جينات وراثية (كروموسومات).

هذه الجينات تحمل كل الصفات الجسدية والروحية التي يتأثر بها الإنسان من آبائه وأجداده.

(اختاروا لنطفكم فإن العرق دساس) كما في الحديث.

إذن لا ينكر العامل الوراثي في تكوين شخصية الإنسان إلا انه يبقى عاملاً مساعداً ويأتي عامل التربية ليكمل دور العامل الوراثي ونحن نريد أن نخصص حديثنا عن الشخصية الاجتماعية لرسول الله، هذا الجانب الذي يبدأ من الساعات الأولى لولادة الإنسان ومنذ اللحظات الأولى التي تبصر عينه نور الحياة فتبدأ شخصية الإنسان بالنمو وتصاغ حسب الأجواء المحيطة به، أجواء الأسرة والبيئة والمجتمع.

إن دوائر التأثير في شخصية الإنسان عبارة عن الأسرة والعائلة والبيت الذي ينشأ فيه الإنسان

وكذلك البيئة والمحيط الاجتماعي والإنسان تتقولب شخصيته ضمن قوالب معينة وضيقة مثل قالب البيئة والأسرة والمحيط الاجتماعي بينما المطلوب في إنسان كالرسول أن لا تتقولب شخصيته ضمن هذه القوالب المتعارفة.

والسؤال الآن، كيف تكونت شخصية رسول الله وما هو مصدر فكره؟

هل تكونت شخصية رسول الله مثلما تتكون شخصية أي إنسان، صحيح أن الرسول بشر ولكنه بشر متميز فليس الرسول كائناً فوق البشر أو من غير عنصر البشر إنما هو من عنصر البشر ولكنه بشر متفوق.

مثال: الزجاج أصله ومعدنه من الرمل ومن مواد رملية والزجاج أنواع هناك زجاج للشباك وهناك زجاج عدسات التصوير وهناك زجاج العدسات المكبرة وهناك زجاج عدسات التلسكوب والمجاهر العلمية وكل هذا الزجاج وكله من معدن واحد ولكن هناك فرق بين زجاج الشبابيك وبين عدسات التكبير لأنه كلما كانت شفافية الزجاج أكثر وكلما كان تركيز الزجاج وتقعيره أكثر تكون قيمته أغلى وفائدته اكثر.

كذلك شخصية الإنسان فالناس كلهم من اصل واحد ولكن اصل الإنسان وجوهره هو عقله وروحه فكلما كانت روح الإنسان شفافة أكثر كلما كان سموه وقدرته اكثر على تلقي المعنويات والكمالات النفسية والروحية فالنبي يمتلك روحاً شفافة ساعدته على تلقي تلك المعنويات السلوكية،وهي التي ساعدته على أن يرتبط بالسماء ويختاره الله لتبليغ رسالته لهذا نلاحظ بأن:

الرسول ومن أول لحظة ولادته أبعد عن دوائر التأثير الطبيعية.

أولاً: نجد أن الرسول ولد يتيماً فلماذا؟

فنشأ بعيداً عن الأبوين وذلك من أجل أن تبقى هذه الشخصية بعيدة عن دوائر التأثير الطبيعية التي تؤثر في صياغة شخصيته أو تتدخل في تكوين أفكاره، فنجد أنه (صلّى الله عليه وآله)، ولد يتيم الأب فلما كان جنيناً في بطن أمه وقبل أن يولد توفى أبوه عبد الله فأبصر الحياة وهو يتيم الأب.

وفي السنة السادسة من عمره تموت أمه آمنة وهو بعد لم يعش في حضن الأم ولم تلمسه يداها بالرعاية والعطف.

- **إعداد السماء للرسول**

ثانياً: يقول الرسول: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)

والأنبياء عموماً تصاغ شخصياتهم الرسالية صياغة خاصة كما يقول الله بالنسبة إلى موسى (عليه السلام): (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) و(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

فالملاحظ أن أغلب الأنبياء يولدون في ظروف غير طبيعية، إبراهيم ولد في ظروف الإرهاب، موسى ولد في عصر فرعون وفي أجواء يسودها التكتم والحذر من ملاحقة السلطة الفرعونية وعيسى ولد في ظروف غير طبيعية.

والسبب أن الأنبياء مطلوب منهم أن يخرجوا مستقبلاً على نظام المجتمع الجاهلي، فلابد أن ينشأوا بعيداً عن الأجواء الجاهلية الموجودة، لأنهم يعدون ـ بإرادة الله ـ للثورة على الأوضاع الاجتماعية الفاسدة.

فلا يصح أن تتأثر شخصيتهم بأي قالب من القوالب السائدة في المجتمع الجاهلي، بل يترك لهم مجال النمو والتكوين في أجواء تتوفر فيها العناية الربانية وتصنعهم اليد الإلهية.

كما نقرأ هذه الصورة من صور السيرة النبوية..

كانت عادة الأشراف في مكة بأن يرسلوا أولادهم إلى البادية ليتربوا وينشأوا في الجو الطلق والمناخ الصحو في البادية ولم تكن من عادتهم أن يبقوا أولادهم في المدينة لكي لا تتلوث نفسية الطفل بأجواء المدينة ولكي يتعلم في البادية على الروح المنطلقة ويتعلم نطق الكلمات فكان الأشراف في مكة يقدمون أولادهم الرضع إلى المرضعات اللاتي يقصدن مكة في السنين العجاف وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) سنة قاسية على قبيلة بني سعد، القبيلة التي نشأ فيها النبي فكانت النسوة اللاتي قدمن من قبيلة بني سعد مع غيرهن يلتمسن الأطفال طمعاً في بر الآباء وأموالهم وأوشكت القافلة أن ترجع بالنسوة ومع كل واحد رضيع وكانت حليمة بنت أبي زئيب السعدية قد رأته أولاً ورفضته كغيرهن من المرضعات ولكنها لم تجد طفلاً آخر غيره لأن أمهات الأطفال كلهن يعرض عنها لضعفها وهزالها، فكانت حالة حليمة السعدية لا تغري أمهات وآباء الرضع بتسليم أولادهم إليها وفيما هي خارجة عن مكة عز عليها أن ترجع ولا شيء معها فقالت لزوجها إني لأكره من بين صواحبي أن أعود ولم أخذ معي أحداً لأرجعن إلى ذلك اليتيم ورجح لها زوجها ذلك.

فرجعت إليه واحتضنته (وروى الرواة عن حليمة السعدية أنها قالت: (قدمنا منازل بني سعد ومعي

يتيم عبد المطلب ولا أعلم أرضاً من ارض الله أجدب من أرضنا فكانت غنمي تعود حيث حل محمد فينا شباعاً فنحلب منها ونشرب ويتدفق الخير علينا واصبح جميع من في الحي يتمنى ذلك اليتيم الذي يسر لنا الله ببركته الخير ودفع عنا الفقر والبلاء، وكانت حليمة ترعاه هي وزوجها وتقدمه على أولادها إلى أن بلغ سنتين من عمره فرجعت به إلى أمه وجده كما هي في باقي المرضعات ولكن على كره منها أي تعلق قلبها بهذا الطفل تعلقاً شديداً وأحب جده عبد المطلب أن يبقى معها خوفاً عليه من الأمراض التي كانت تتعرض لها مكة بسبب الوفود التي تلتقي فيها من جميع أنحاء شبه الجزيرة ولا سيما وقد رأى عبد المطلب من عطف حليمة عليه ولهفتها على بقائه معها ما لم يره من أم على طفلها الوحيد واستجابت آمنة لرغبتها فرجعت حليمة به إلى بيتها وهي تحس بالسرور والغبطة. وجاء عن حليمة أنها قالت: (لقد قدمنا مكة على عامنا بعد أن تم لمحمد عامان ونحن نحرص على مثله فينا لما نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلنا لها لو تركتيه معنا حتى يبلغ ويشتد ولو هذه السنة فإنا نخشى عليه وباء مكة ولم نزل بها حتى ردته معنا، وأضافت حليمة إلى ذلك انه لما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون وقال لي يوماً: (أماه ما لي لا أرى اخوتي في النهار فأين يذهبون) وكان اخوته من الرضاعة عبد الله وآنسة وشيماء، فقالت: (فدتك نفسي إنهم يرعون غنماً لنا فيروحون من الليل إلى الليل فقال لي: (ابعثيني معهم) فأرسلته معهم فكان يخرج مسروراً ويعود مسروراً وظل فترة من الوقت على هذه الحال.

- **منعطفات في حياة النبي**

ولما بلغ رسول الله السنة الثالثة من عمره ذهبت به آمنة إلى يثرب ليزور أخواله بني عدي بني النجار وصحبته في هذه الرحلة، حاضنته أم أيمن وهي بركة الحبشية جارية أبيه التي خلفها له مع ما خلفه من ميراث قليل، وفي هذه الرحلة رأى محمد قبر أبيه ولعله هذه أول مرة أحس فيها بلدغة الحزن في فؤاده ولعلها كذلك أول مرة عرف بها معنى اليتم، ثم رجعت به أمه إلى مكة فلما قطعت به من الطريق نحو مرحلة فاجأها الموت عند قرية الأبواء فدفنت هنالك ورجع محمد وحيداً تمتلئ عيناه بالدمع ويمتلئ قلبه بالأسى.

ثم نأتي إلى المرحلة الثانية، مرحلة الرعاية والكفالة، هذه المرحلة التي ترعرع فيها رسول الله في كفالة جده عبد المطلب في هذه المرحلة نجد أن حياة الرسول تتسم بملامح خاصة فكان عبد

المطلب سيد قريش وكانت لقريش تقاليد خاصة وعادات تعارفوا عليها كابراً عن كابر فكانوا يربون أولادهم وصبيانهم على عادات معينة وكانت مجالس الآباء خالصة للكبار ويبعد عنها الصغار ولا يسمح لهم أن يشاركوا الآباء والكبار في مجالسهم وندواتهم حتى يربوا الطفل على آداب الاحترام والحشمة، فلما يبلغ لطفل مبلغ الرجال يسمح له أن يرافق أباه إلى مجالس الكبار وأندية الشخصيات البارزة في المجتمع ويجب أن يلتزم هذا الشاب مع أبيه ومع وجود الكبار في المجالس بآداب خاصة ولا يتجاوز حدوده الطبيعية (كان هذا عرفاً سائداً في قريش وفي مكة والجزيرة العربية) لكن بالنسبة إلى رسول الله أتيح له جو آخر فكان يعطف عليه جده عبد المطلب عطفاً كثيراً لأنه كان محروماً من الأب، وربما كان دافع عبد المطلب في احترام هذا الطفل هو دافع العاطفة والإحساس بيتم محمد (صلّى الله عليه وآله) والعطف عليه لكي لا يشعر بالفراغ العاطفي والحاجة إلى عاطفة الأبوة في نفسه، ولكن الله يريد شيئاً آخر يريد أن يتيح لهذا الطفل أجواء خاصة ليختلط مع الكبار وينفتح فيها على أندية الرجال ويأخذ ويعطي ويتربى تربية الرجال الكبار وكان من عادة عبد المطلب أن يتخذ له مجلساً في فناء الكعبة يتحدث فيه إلى رجال قريش ويتحدثون إليه فكان يوقد له سراج في ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ولا يجلس على فراشه أحد إجلالاً لأنه كان سيد قريش إلا رسول الله فإنه كان يأتي وهو غلام حتى يجلس على فراش جده فيأتي إليه أعمامه ليؤخروه ويبعدوه فيمنعهم عبد المطلب فيقول دعوا ابني ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يفعل فكان عبد المطلب يعامل هذا الغلام معاملة خاصة خارجة عن المتعارف وكان يقربه ويدخله عليه إذا خلا بنفسه وإذا قام وكان لا يأكل طعاماً إلا قال، عليّ بابني فيؤتى به إليه.

ثم إن الإنسان كما هو واضح مثل معدن الذهب والفضة والبترول يملك من المواهب والطاقات الهائلة ما يحتاج إلى كشف وإخراج وتنمية، فالبترول معدن مدفون تحت طبقات سميكة من الأرض وبحاجة إلى من يأتي ويكتشف ويستخرج البترول ويصفيه ويصنعه ويحوله إلى أداة للحياة والتقدم.

وهكذا هو جوهر الإنسان ومعدنه وطاقاته ومواهبه النفسية والعقلية.

فتتدخل ظروف التربية في المجتمع وعوامل النمو الطبيعية والأحداث والمراحل التي يمر بها الإنسان في إبراز شخصيته وتنمية مواهبه.

حتى الأحداث القاسية من الفقر والحرمان والنكبات التي تصدم الإنسان في تفجير أحاسيس التحدي والمقاومة وتقوي روح الصمود والإصرار في نفسه. كما في الحديث: (عند تقلب الأحوال تعرف حقائق الرجال)

فالأحداث الذي مرّ بها الرسول في أيام صباه وشبابه وقبل بعثته الشريفة ساعدت على إبراز شخصية الرسول الاجتماعية فكان يتفاعل مع الأحداث الاجتماعية، وذلك لما بلغ سن الشباب.

مثلاً سفره إلى الشام وانفتاحه على العالم الخارجي وتعامله التجاري في أموال خديجة ـ ثم زواجه منها ـ وكذلك مساهمته في مشاريع اجتماعية، مثل حلف الفضول ومشاركته في بناء الكعبة ومبادرته بحل ذلك النزاع الذي حدث بين قبائل العرب عندما أرادوا وضع الحجر الأسود في موضعه.

ثم اشتهاره بين الناس بالصادق الأمين حتى أصبح هذا اللقب ملازماً لشخصية الرسول وتأمله في غار حراء واعتزاله الناس وابتعاده عن مكة وأجوائها الصاخبة وانقطاعه عن التأمل والتحنث في غار حراء على جبل النور في مكة المكرمة.

هذه الأحداث والمنعطفات في حياة النبي الأولى ـ قبل البعثة ـ كلها كانت تدفع شخصية النبي للبروز وتدل على شخصية خارقة، هذا الإنسان يكتب له أن يؤدي دوراً عظيماً جداً في المستقبل.

محمد (صلّى الله عليه وآله) رسول الإنسانية والحرية

ماذا فعل النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) حتى أصبح عظيماً بهذه الدرجة..

ماذا صنع محمد (صلّى الله عليه وآله) للإنسان في تلك الفترة من حياته.. حتى نجد أن البشرية كلما يبرز فيها عظماء عباقرة ومفكرون شخصيات تحولوا إلى أقزام بين يدي ذلك العملاق.

حتى يقول فيه البروفسور (ستوبارت):

(إنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الإنساني بأكمله يقارب شخصية محمد!)

(إلا.. ما أقل ما أمتلكه من الوسائل المادية وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية، فلن نجد فيه اسماً منيراً كاسم النبي العربي، الذي قدمه للبشرية سابقاً..؟)

وهل لا زالت أمتنا تتمكن أن تستفيد من هذا الذي صنعه الرسول في حياته إذا عرفنا أن الشيء الذي قدمه الرسول للإنسانية هو إتيانه بدين جديد شأنه شأن سائر الأديان التي جاء بها الأنبياء قبله، مثل موسى وعيسى..؟

فإنه في هذه الحالة يبقى سؤال انه لماذا اصبح إذن محمد (صلّى الله عليه وآله) سيد المرسلين وخاتم الأنبياء..؟

ما هي هذه الميزة الموجودة في خاتم الأنبياء التي لا توجد في غيره ممن سبقه..؟

وإذا اعتبرنا محمداً (صلّى الله عليه وآله) كأي مصلح آخر جاء إلى شعبه وأنقذهم من التخلف والانحطاط والحرمان، وأوجد لهم حياة حرة ينعم فيها الناس بالرضاء والمحبة والوئام.

فإذن يجب أن يكون شأنه ـ في هذه الحالة ـ شأن سائر المصلحين الاجتماعيين وهو أن يأتي فترة ويحكم ويحتل صفحات معينة من التاريخ ثم يمر عليه زمن وتطوي تلك الصفحات، وينسى ذلك المصلح، ويخرج من ذاكرة الزمن والأجيال الجديدة إلا اللهم من كان همهم هم دراسة التاريخ ورجاله ومن أراد أن يراجع أوراق التاريخ الصفراء ويقرأ سطورها المنسية فيعثر على اسم رجل كان في فترة كذا وعمل كذا..

إذن ما الداعي إلى أن يعيش محمد (صلّى الله عليه وآله) في حياة الناس اليومية.. ويعاصر الزمن

ويبقى الناس يرددون اسمه كل يوم؟؟

وهل يحتاج محمد (صلّى الله عليه وآله) أن يدخل في حياة الإنسان اليومية إلى هذه الدرجة حيث يصاح باسمه كل يوم عشرات المرات.. ويذكر ويصلى عليه؟ وماذا فعله محمد (صلّى الله عليه وآله) حتى يظل إلى هذه الفترة يعيش مع الأجيال المتجددة ويحتفلون كل سنة بمولوده ومعراجه وهجرته.. وحروبه وغزواته؟؟

واليوم حيث يطل القرن الخامس عشر على هجرته فتتحول الدنيا إلى مهرجان احتفالاً بهذه المناسبة، نحن نعرف بأن أشخاصاً عظماء زاروا الحياة فترة وعملوا ما عملوا وأنجزوا أعمالاً ضخمة، لكنهم نتيجة قدم الزمن ومرور الأيام والعصور تحولوا إلى فسيفساء جميلة تزين جدار التاريخ وتحولوا إلى مواد أثرية.. أو أساطير مدونة في الكتب التاريخية!

مثل الاسكندر المقدوني المعروف بذي القرنين..أو سقراط وأفلاطون ونابليون وغاليلو وكوبرينك ونيوتن وأديسون وانشتاين وغيرهم من العلماء والمخترعين والملوك والفاتحين.

إلا أن محمدا (صلّى الله عليه وآله) الوحيد الذي يشارك الناس في حياتهم اليومية، ويجوز هذا الذكر الخالد والمعاصرة اليومية لحياة المجتمعات الحديثة.

إنه جزء محسوس من حياة المسلم العادية.. فتراه يصبح على ذكر محمد (صلّى الله عليه) وآله) ويمسي على ذكر محمد (صلّى الله عليه وآله) ويلهج على ذكر محمد (صلّى الله عليه وآله).

إنه الإنسان الوحيد الذي يعيش في كل زمان وفي كل مكان، لا تخلوا أرض من ذكره ولا تخلوا لحظة واحدة عمن تلهج شفتاه باسمه المبارك، هل هناك سر..؟

وهل أن محمداً (صلّى الله عليه وآله) لا زال حياً بفعل الأمر الذي صنعه للحياة وبفضل الشيء الذي قدمه للإنسان.؟

ويا ترى ما هو؟ وماذا عمل النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) حتى يستحق كل هذا المجد والخلود؟ وماذا قدم ولا زال لأفراد البشرية.. حتى يتطلب من الإنسان أن يذكره كل يوم ويستحضر شخصيته في عبادته وتوجهه لاستقبال كل يوم جديد؟

الجواب:

نحن الآن في عصر الصاروخ والكهرباء..

وفي عصر العقول الإلكترونية والنظريات العلمية الحديثة.

أي أن الإنسان سد حاجاته المادية تقريباً، واكتفى من الناحية التكنولوجية والآليات المكانيكية.

ويعيش من ناحية الوسائل وطرق الرفاه والمواصلات الحديثة في أرقى المستويات.

ولكن هذه الوسائل والتقنية لبّت حاجات الإنسان الجسدية فقط أما الحاجات النفسية والروحية فلا زالت بحاجة إلى إشباع ولم تتمكن الحضارة الحديثة بما أوتيت من وسائل وقوة أن تسد هذه الحاجات.

فالحضارة المادية المعاصرة أوصلت الإنسان إلى حافة الدمار.. لأنها لا تحمل في طياتها المضمون الإنساني.. والهدف الحقيقي.. للكائن الحي.

(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ).

إن أعظم مهمة في رسالة النبي هي: تحرير الإنسان..

تحرير الإنسان من القيود التي تبعده عن الحق، تحرير الإنسان من الأغلال النفسية (الجبت) والأغلال الاجتماعية والسياسية (الطاغوت).

فشرط الإيمان في رسالة النبي محمد (صلّى الله عليه وآله): أولاً الكفر بالجبت والطاغوت..

أي رفض القيود والأغلال، وإزالة الأنظمة الجائزة، ومكافحة الطغاة من الخارج بعد تحرير النفس من أغلال الخوف والجبن والكبر والشهوات في داخل النفس.

إن أعظم ما قام به النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) وصنعه وقدمه للحياة والإنسانية: هو انه كسر عن الإنسان تلك القيود التي كانت تكبل عقله ونفسه، يديه ورجليه، وتمنعه من الانطلاق بحرية في الحياة من أجل تأمين سعادته واستقلاله وكرامته، لقد كانت القيود والأغلال النفسية والخارجية تكبل حياة الإنسان كثيرة.. ورهيبة...

وجاء محمد (صلّى الله عليه وآله)، برسالة الحرية، وكسر تلك القيود الواحد بعد الآخر.

أول قيد وأعظم غل كان يطوق رقبة الإنسان في ذلك العصر:

الجهل والتقليد الأعمى.

أغلال الخرافة والتقاليد الجاهلية..

لقد كان الجهل سائداً في ذلك المجتمع الجاهلي.. وكان ظلاماً مسيطراً على تفكير الناس..

وكان هذا الجهل سبباً لكل الآلام والمشاكل والجرائم التي يعاني منها الإنسان في ذلك العصر.

وكان الإنسان يرضى بذلك الواقع الفاسد والوضع المتردي لأنه كان يجهل طريق السعادة والصلاح

في الحياة.

وكان الإنسان يرضى بأن يسيطر عليه حفنة من المرابين والتجار.. تحت غطاء الأصنام والأوثان المقدسة.. فكان هؤلاء المظللون والدجالون يلعبون بعقله ويستنزفون جهوده ويسترقونه ويبقونه عبداً خاضعاً لهم..

لقد كان أغلب الناس في مكة يعيشون عبيداً تحت سيطرة مجموعة من السادة والأغنياء المستكبرين.. وهؤلاء يلهبون ظهور أولئك العبيد بالسياط ويحملون على ظهورهم الأثقال. وهم يئنون تحتها ولا يستطيعون أن يتنفسوا في الهواء الطلق أو يستنشقوا نسمة الحرية.

لقد جاء النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) إلى مجتمع نصفه عبيد ونصفه سادة مترفون ومستكبرون.. يستعبدون الناس الضعفاء بالقوة ويسرقون جهود ونتاج عملهم ويستنزفون أقصى طاقاتهم ويلقون لهم بفتات موائدهم التي يأكلوها ممزوجة بالذل والهوان.

وبعد ما جاء النبي دعا هم إلى دين التوحيد ورسالة الحرية كانت أول كلمة في رسالة النبي هي كلمة: (اقرأ) وهي كلمة العلم..

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) كلمات تتحدث عن العلم والقراءة والقلم وتشرح معلومات عن طريقة خلقة الإنسان (علم التشريح والفسلجة)..

إنها رسالة العلم ضد الجهل والخرافة..

وفي هذا المجتمع الأمي ـ الجاهلي ـ حيث كان الأشخاص الذين يعرفون فيه القراءة والكتابة لا يتجاوزون عدد الأصابع.

وإذا بالرسالة التي تقرع سمعهم تتحدث عن القراءة والكتابة، وعن القلم أداة التثقيف والتعليم.

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ). القلم والفكر.

وفي ذلك المجتمع يأتي النبي بحقائق علمية ويصدمهم بها.. حينما كانوا لا يفقهون شيئاً عنها..

تلك الحقائق العلمية التي ذكرها النبي والقرآن، جاء العلم الحديث ليتوصل إلى بعضها اليوم ويكتشف بعض أسرارها.

حتى لكأن وعد القرآن بذلك منذ أول يوم حين قال: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ).

إن رسالة تتحدث عن العلم والثقافة جاءت لتكسر قيود الجهل والخرافة والتقليد عن عقل الإنسان وتفكيره، ألم يعترف أولئك الذين رفضوا قبول دعوة النبي واتباع رسالته بهذه القيود التي تمنعهم من الإيمان برسالته والقبول بدعوته.

اعترفوا بأن الذي يمنعهم عن قبولهم هو جهلهم بما يقول: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ).

فعقولهم الغارقة في الجهل والظلام لا تفقه قوله، وآذانهم المثقلة بأحاديث الخرافة والأفكار الجاهلية.. تجعل بينهم وبين فهم دعوة النبي وفهم أهدافها هذا الحجاب السميك.

كما إنهم كانوا يبررروا بالتقليد الأعمى للآباء والتعصب لدينهم: (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ).

وحقاً كانت رسالة النبي رسالة العلم والنور.

فإن أولئك الذين اتبعوا تلك الرسالة، والتفوا حول دعوة النبي، وهم الفقراء العبيد والمستضعفون الذين وجدوا في دعوته الخلاص والمفتاح لباب الحرية والكرامة والهدى.

هؤلاء الحفاة العراة حولهم نبي الإسلام بعد أقل من ربع قرن من الزمن إلى بناة حضارة وحملة مشاعل العلم والحرية إلى شعوب العالم.

يدخل واحد منهم على (رستم) قائد الفرس قبيل معركة (القادسية) بعد أن طلب من المسلمين أن يرسلوا إليه وفداً ليباحثهم ويباحثوه ويفاوضهم ويفاوضوه، فندب المسلمون جماعة منهم (المغيرة بن شعبة) ليكون ممثلهم إلى (رستم).

(فلما وصل إليهم وهم على زيهم وجد بسطهم أدنى من مجلس رستم (أي كان لرستم كرسي خاص لا يدنوا إليه أحد).

فجاء وجلس مع رستم على سريره فغضب وأمر بإنزاله عن السرير فالتفت المغيرة إليه قائلاً:

(إنني لم أرى أسفه منكم، إننا معاشر المسلمين لا يستبعد بعضنا بعضاً فظننتكم كذلك، وكان أحسن بكم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض).

(مع إنني لم آتكم وإنما دعوتموني، فقد علمت أنكم مغلوبون ولن يقوم لكم ملك على هذه السيرة).

فتكلم رستم فعظم من شأن الفرس ثم قال بكل غرور وكبرياء:

(كانت عيشتكم سيئة تقصدوننا في الجدب فنزودكم بشيء من التمر والشعير، ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من جهد، فنحن نعطي لأميركم كسوة ونعلاً وألف درهم وكل رجل منكم حمل تمر وتنصرون فلست أشتهي قتلكم)!!.

فلم يكن من المغيرة إلا التفت إليه قائلاً:

(أما الذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق فنعرفه ولا ننكره والدنيا دول.. والشدة بعدها رجاء، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلاً على ما أوتيتم، وقد سلمكم الله بضعف الشكر إلى تغير الحال.

وإن الله قد بعث فينا رسولاً يدعونا إلى كذا فإن أبيتم فأمر أهون من ذلك الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة (الحرب).

ولما خرج المسلمون لفتح مصر رغب المقوقس في المفاوضة أيضاً، فأرسل إليهم وفداً لعلم ما يريدون ثم طلب منهم أن يبعثوا إليه وفداً منهم.

فشكل عمرو بن العاص (قائد الجيش آنذاك) قوامه عشرة من المسلمين برئاسة (عبادة بن الصامت) وكان شديد السواد.

ولما دخل الوفد على المقوقس تقدمهم عبادة، فأبى المقوقس أن يكلمه رجل أسود ـ من شدة تجبره وكبرياءه ـ وقال لمن معه: (نحّوا عني هذا الأسود وقدموا غيره ليكلمني)، فقال الوفد جميعاً:

(إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله).

قال لهم المقوقس:

(كيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون دونكم؟).

قالوا: (كلا إنه وإن كان أسوداً كما ترى فإنه أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً وليسن ينكر السواد فينا).

هكذا حرر النبي الإنسان من قيود الجهل والظلم والظلام وحطم مقاييس التفرقة العنصرية والتمييز الطبقي بين أبناء المجتمع، وأعطى الإنسان شعوراً بالكرامة والسيادة والثقة بنفسه، والمساواة مع أبناء جنسه..

(لا فضل لعربي على أعجمي ولا ابيض على اسود إلا بالتقوى).

وأصبح المسلمون ـ حملة رسالة العدل والأخوة والمساواة إلى الشعوب الرازحة تحت نير الطغاة والمستعبدين والواقعة تحت وطأة الظلم والتمييز الطبقي..

وهكذا حرر الإسلام شعوب العالم.. عندما حرر الفرد وأشعره بقيمته الإنسانية.. وحرره من سيطرة الأسياد والمستكبرين.. والمتحكمين في مصيره..

الإسلام جعل الإنسان حراً في اختياره وتقرير مصيره بنفسه فقد وضع الإسلام مقياساً واحداً للحكم والرجوع عليه.. وهو العقل والمنطق.. فالعقل وحدة مقياس للحق والعقيدة.

وإذا تحرر العقل من سيطرة الجهل والشهوات والتظليل والإغراء.. فإنّه يبصر النور ويهدي الإنسان إلى السعادة.

إن القيود المفروضة على عقل الإنسان والتي تمنعه من التفكير الحر والصائب هي:

١ـ قيد الجهل والشهوات والأهواء النفسية.

٢ـ قيد التقليد الأعمى واتباع الآباء.

٣ـ قيد المضللين وأصحاب الأغراض والمصالح المتحكمين في المجتمع.

وهؤلاء لا يشكلون الطاغوت في اصطلاح القرآن.

والطاغوت الذي أمرنا القرآن بالكفر به وعدم الخضوع له يظهر في ثلاثة وجوه أو يعتمد على ثلاثة أركان هي:

١ـ القوة.

٢ـ المال.

٣ـ الإعلام.

ويمثلهم في التاريخ فرعون رمز التسلط والطغيان السياسي، وقارون رمز الاستثمار والطغيان الاقتصادي، وبلعم بن باعورا رمز التضليل الإعلامي واستغلال ستار الدين من قبل الرجعية.

فهؤلاء كلهم وقفوا في صف واحد ضد النبي موسى ورسالته التحررية.

وحينما جاء النبي ووجد هذه الفئات المتحكمة في المجتمع ثار في وجه هذه الفئات.. وكسر قيودها المسيطرة على الناس حينئذ.

فثار ضد الأصنام وسدنتها الذين كانوا يسيطرون على عقل الإنسان وشعوره، ويبتزون طاقاته عن

طريق تقديس الأصنام وعبادتها في الكعبة.

لقد كان تجار قريش يستغلون الدين والعبادة المقدسة عند الكعبة للتجارة والمصالح، فكانوا يستغلون السذج والبسطاء، ويظللونهم ويملأون عقولهم بالخرافات والجهل.

وكانت سدانة البيت بيد تجار مكة وأثريائها.

وكانت المصالح تتركز في يد طبقة من البرجوازيين والأثرياء أمثال أبي سفيان وأبي جهل وأمية بن خلف ورؤساء القبائل.. وهم يسيطرون على كل شيء، ويتحكمون في كل شيء، ويستغلون كل شيء من اجل مصالحهم المادية.

فكان الإنسان يعيش تحت سيطرة هذه الطبقة الأرستقراطية، ولا يملك حرية التفكير والتعرف والخروج على هذه المعتقدات والأفكار التي ينشرونها.. وهي: عبادة الأصنام والأوثان وتقديم القرابين والنذور لها، فكانت واردات هذه الأصنام تصب في جيوب أولئك الأغنياء والمستغلين.

بالإضافة إلى مظاهر الميوعة والتحلل والفساد الخلقي التي كانت منتشرة في ذلك الجو الموبوء.. وهي التي كانت تستهوي شباب مكة والعرب فكانت تجلبهم إلى سوق عكاظ.. لاقتراف المجون والتحلل، في سائر المراكز والمحلات..

فكان ينظر النبي إلى هذه المظاهر بعين الاشمئزاز والتقزز، وكان يدعوه هذا المحيط الموبوء والبيئة الفاسدة بل وتلجئه إلى الهروب من مكة واللجوء إلى جبالها وشعابها المقفزة، والاختلاء بنفسه، والتفكير، والانقطاع، والتبتل في غار حراء على بعد ثمانية أميال من مكة في وسط جبل خشن سمي فيما بعد بجبل النور.

الوحي نافذة على الحياة

كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يخلو بغار حراء فيمكث فيه.

فجاءه الملك وقال له: اقرأ.

قال محمد: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ، قال فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت:

ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني.

فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق...

• الوحي والرسالة:

نحن لا نفهم الرسول حتى نفهم الرسالة أولاً...

فالرسول فرقه عن سائر الناس انه حامل الرسالة...

فما هي الرسالة إذن؟

أو الوحي الذي جعله القرآن مميزاً للرسول عن سائر البشر...

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ).

إن الله تعالى ـ لحكمة يعلمها ـ يرسل رسائله بوسائل خفية إلى الإنسان المختار للرسالة، بعد أن

يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها.

فليس هناك من تصادم بالحقيقة بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية فهو واقع من الوقائع الكثيرة التي

نشاهدها ونجربها في أمكنة وطرق مختلفة فلو كان إمكان وجدناه في شكل الواقع بعد التجربة...

• الوحي: علاقة الخالق بمخلوقاته:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ).

الوحي: هي العلاقة التي تكون بين الخالق ومخلوقاته.

همس السماء للأرض... قانون الكمال والحياة الذي يودعه الله في الكائنات الطبيعية... نظام الحياة الذي ألهمه الله للأحياء...

(لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا).

أي قانون كمالها...

فكل مخلوق يختلف وضعه ومنهج حياته وقانون تطوره وتكامله فالحيوان مفطور على مجموعة غرائز هي قانون كماله وسيرته الطبيعية...

النحل مفطور على بناء خلية بشكل سداسي...

وعن طريق الغريزة والقانون المودع في النحل تعلم هذا الشكل في هندسة بيته وخليته...

وإلا متى وكيف تعلم النحل وفي أية كلية هندسة درس.

وهناك حقائق لا مرئية مبثوثة في كل أجزاء الكون...

وإذا كنا قد عجزنا سابقاً عن رؤية خط اتصال ساخن بين الله سبحانه وبين الرسول، فإننا اليوم نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل كثير من الحقائق العلمية والتجارب...

- **أعطى كل شيء خلقه ثم هدى:**

إن هناك وقائع كثيرة جداً تجري من حولنا في كل لحظة ونحن نعجز عن إدراكها أو سماعها أو الإحساس بها بواسطة أجهزتنا العصبية وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها... هذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوب دباب طائر على بعد بضعة أميال وكأنه يطير عند أذنك.

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء...

وإذا كان الإنسان يحتاج إلى استخدام الوسائل واختراع الآلات في إدراك بعض الأمور التي لا يمكن له سماعها بالطرق السمعية التقليدية...

كان هناك بعض الحيوانات مزودة بطاقة غير عادية وبأجهزة التقاط خارقة تختلف عن أجهزة الإنسان.

إن جهاز سماع الإنسان محدود جداً، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف...

فالكلب مثلاً: يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مرّ في الطريق ويميز رائحة إنسان معين من بين مجموعة من الناس.

فالكلب البوليسي ـ المدرب ـ يشم القفل الذي كسره اللص ثم ينطلق مقتفياً أثر الرائحة التي وجدها عند القفل المكسور، وفجأة نراه يمسك باللص من بين الألوف...

وأما الطيور المهاجرة التي تهاجر في الخريف وتقطع الآلاف من الأميال وتعود إلى عشها كل ربيع، وهكذا النحلة التي تغادر بيتها وتذهب مسافات شاسعة بحثاً عن الأزهار ومصادر العسل، فإنها لا تضل طريقها إلى خليتها مهما طمست الريح في هبوبها من الأعشاب والأشجار...

وتوجد أنواع من الحيوانات والصقور وحتى الحشرات الدقيقة مزودة بعيون ميكروسكوبية (مكبرة).

والصقور لها عيون تلسكوبية (مكبرة ومقربة).

بينما الإنسان يمتاز ـ في هذه الناحية ـ بأدواته الميكانيكية ويسد هذه الحاجة بعقله فيرى الوسيم بالتلسكوب بقوة مضاعفة إلى مليون مرة ويرى بالميكروسكوب البكتريا غير المرئية...

... وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتاً تخرج عن نطاق أسماعنا... فحشرة (العثة) وهي حشرة مجنحة عندما تضعها على نافذة مفتوحة، فستحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جداً، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضاً بطريقته.

وحشرة (الجندب) يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريقة غير عادية ويسمع على بعد نصف ميل، وهو يحرك في هذه العملية ستمائة طن من الهواء ليدعو زوجته وهذه الزوجة ترسل أيضاً وهي ساكنة بلا حركة الجواب بنفس الطريقة وتخبره عن موقعها، فيحلق بها الذكر ويذهب إليها على العنوان الذي أعطته له...

فمادام في هذا الكون حركات وأصوات لسمعتها آذان الإنسان ولكن تلتقطها الآلات، وما دامت هناك رسائل محاورات تدركها الحيوانات دون أخرى.

بل أن تجارب الإشراق والانكشاف ومعرفة الغيب، توجد في الإنسان بالقوة ـ ولا تختص ببعض الحيوانات فقط ـ فلا نتصور هذا الإنسان مجرد جسد تحده عوامل الزمان والمكان كما يقول (الكسيس كاريل): (إن حدود الفرد في إطار الزمان، والمكان هي بمجرد افتراض).

فيستطيع عامل الإشراق أن يجعلك تنام وتضحك أو تبكي، كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر لست على علم بها...

إنها عملية لا تستعمل فيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه.

لقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الإشراق، ومنها أن أمواجاً تصدر من المخ وتنتشر في العالم أجمع بسرعة فائقة، ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية.

- **قصتان:**

١ـ حدث سنة ١٩٥٠ أن المسؤولين في (بافاريا) رفعوا قضية ضد رجل نمساوي اسمه (فرنترستروبيل) بتهمة التدخل في برامج الإذاعة عن طريق الإشراق.

وكان (فرنترستوبيل) يستعرض أعماله الخارقة في فندق (ريخنا) بميونخ عندما ناول أوراق (لعب الكوتشينة) إلى أحد المتفرجين وطلب إليه اختيار ورقة ما، وأدعى انه سوف ينقل اسم تلك الورقة واسم الفندق مع ترتيبها ـ كما في ذهن المتفرج ـ إلى المذيع الذي كان يقرا الأخبار من إذاعة ميونخ المحلية ذلك دون أن يعرف المذيع من نفسه شيئاً من هذا...

بعد ثوان سمع الناس صوت المذيع يرتعش وهو يقول: (فندق ريجنا ـ بنت البستوني) وكان الترتيب واسم الورق صحيحاً كما أراد المتفرج.وكان الارتعاش والوهبة واضحين في صوت المذيع، ولكنه واصل قراءة الأخبار ولكن استغرب الكثيرون من سكان ميونخ واتصل مئات منهم تلفونياً بالإذاعة يستفسرون عن السر الغامض، فكان من الصعب عليهم أن يدركوا علاقة الأخبار (بفندق ريجنا ـ بنت البستوني). وحضر طبيب الإذاعة للكشف على المذيع فوجده في حالة اضطراب خطير وأدلى المذيع ببيانه قائلاً: (إني شعرت بصداع شديد في رأسي ولا أعرف ماذا بعد ذلك).

٢ـ كما أن تقابل الكون في صورة معينة قد طوع (لماركوني) أن يسلط تياراً كهربائياً خاصاً من سفينته التي كانت راسية البندقية وأن يضيء بقوة موجات الأثير مدينة (سدني) في استراليا.

... فلما كان الإنسان يستطيع تحويل الأفكار بكاملها إلى إنسان آخر ومن مكان بعيد جغرافياً وبدون استعمال واسطة مادية ظاهرية...

فلماذا تستحيل هذه العملية بين الإله وعباده؟!

إننا بعد الإيمان بالله والاطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما في ذلك (الإشراق) لا نجد أساساً لإنكار الوحي والإلهام...

إن الإشراق كمظهر من مظاهر قابلية الإنسان وقواه الخارقة، ليس إلا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعاني التي تربط العبد بالله تعالى، عندما يرسل رسله وينزل رسالاته عليهم...

• ما هي الضرورة للوحي والرسالة

إن اكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذي يخبر عنه الرسول (صلّى الله عليه وآله) من أهم الأمور التي تتعلق بحياة الإنسان ومصيره والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى تلك الحقائق الخاصة، انه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كي يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها، حقائق تنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع الإنسانية أن تسير قدماً في طريق الخير والعدل والصلاح، ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا...

فقد كشف الإنسان عن أسرار الحديد والبترول وتعرف على حقائق الطبيعة بعد جهد يسير، ولكنه عجز عن كشف (علم الإنسان) وسر وجوده، رغم أن جهود أعظم العقول البشرية تواصل البحث عن هذا العلم ولم تستطع حتى الآن تحديد مبادئه وأسسه، وأن هذا هو اكبر دليل على أن الإنسان يحتاج إلى هدى الله من أجل أن يعرف نفسه...

إن الإنسان المعاصر لم يفلح بعد في كشف سر الحياة.

ولا ريب أن عجز مجتمع العلم والصناعة عن إشباع الحاجات النفسية للإنسان يؤكد الفكرة التي تقول:

(إننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية حين تركنا الإنسانية في مراحلها البدائية)...

ولا شك أن العلوم الحديثة قد فتحت مجالات أمام الإنسان ولكنها في نفس الوقت جعلت المسألة أكثر تعقيداً، ولم تساعد في حل الأزمة في أية مرحلة...

(إن الكون الذي كشفه العلم الحديث هو اكثر غموضاً وإبهاماً من التاريخ الفكري بأكمله، ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة اكثر غزارة من أي عصر مضى، ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة فنحن نواجه اليوم الإبهام والمتناقضات في كل ناحية).

ويقول (الكسيس كاريل):

(إن مبادئ الثورة الفرنسية وأفكار ماركس ولينين لا تنطبق إلا على الإنسان العقلي المثالي، ومن الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات الإنسانية لم تكشف بعد، أما الاجتماع والاقتصاد وما أشبهها في علوم افتراضية محضة، بدون أدلة يمكن إثباتها بها).

- **الوحي نافذتنا على أسرار الحياة:**

فهذه الكارثة التي يقف أمامها الإنسان بعد بحث طويل في العلوم المادية عن أسرار الحياة تدلنا على أن إدراك سر الحياة ليتاح للإنسان...

إن أحوالنا تحتم علينا أن نعرف سر الحياة، إذ أننا لا نستطيع مواصلة الحياة في اكمل صورها دون معرفة هذا السر، ولذلك كان خير ما نتمنى بقلوبنا أن ندرك ذلك، ولا يرضى أسمى جزء في شخصيتنا أن يطمئن بدونه فحياتنا متبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة...

سر الحياة هو من ضرورتنا الكبرى، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها.

هذه الحالة وحدها تكفي لتبين حاجتنا الشديدة إلى الوحي فأهمية سر الحياة ثم خروج هذا السر من دائرة قوى الإنسان يدل على انه لابد أن تأتي المعرفة من الخارج أيضاً كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان، ولكنها هنا من الخارج...

يقول ابن سينا تحت عنوان: (حالة النفس الطاهرة لدى الأنبياء)...

(النفس الطاهرة هي النفس العاقلة لدى كبار الأنبياء وهي تدرك المعقولات دونما معلم أو كتاب، وهي برؤيتها ويقظتها ترتفع إلى عالم الغيب وتتلقى الوحي منه...

هذا الوحي هو الصلة ما بين الملائكة والنفس البشرية وهو الفاعل والمؤثر في مادة العالم والدافع إلى تحقيق المعجزات... وهي تلك المرتبة العليا من مراتب الإنسانية.

وهكذا فالكائن (النبي) الذي يملك مثل تلك النفس هو خليفة الله على الأرض...

والوحي لا ينقض العقل، بل ضروري ولا غناء عنه لديمومة الجنس البشري).

بالمناسبة...

يقال أن أحد تلاميذ ابن سينا قال لأستاذه يوماً:

لماذا لا تدعي النبوة، وأنت إنسان عبقري وفيلسوف وإذا ادعيت ذلك يصدقك الناس ويتبعك منهم

كثيرون...

فقال ابن سينا سأعطيك الجواب بعدئذ.

وفي الليل كان الأستاذ وتلميذه نائمين في غرفة واحدة، وكانت ليلة من ليالي الشتاء الباردة، فانتبه ابن سينا من نومه لحظات قبل الفجر، وأيقظ تلميذه وطلب منه أن يجلب له كأساً من الماء لأنه عطشان، فتكاسل التلميذ أن يقطع نومه اللذيذ ويغادر فراشه الدافئ ويأتي بالماء، أخذ يتعذر لأستاذه بأن الماء مضر بالصحة في مثل هذا الوقت.

وفجأة ارتفع صوت المؤذن ـ في الخارج ـ يؤذن لصلاة الفجر.

فقال ابن سينا لتلميذه:

أنظر إلى هذا المؤذن الذي خرج في هذا الوقت البارد إلى المسجد امتثالاً لأمر ذلك الرجل الذي بعث للنبوة قبل ثلاث عشر قرناً وهذا المؤذن لم ير ذلك النبي ولم يشاهده.. بينما أنت تلميذي وأقرب الناس إليّ، فكيف تريد أن أدعي النبوة لسائر الناس؟!

الروح القيادية في الأمة

• مجريات أحداث معركة أحد:

في واقعة أحد عندما أصيب المسلمون بالهزيمة في الجولة الثانية في المعركة، بعد ما ربحوا الجولة الأولى، وسيطروا على المشركين، واستولوا على الغنائم، وانشغلوا بجمع الغنائم من ساحة المعركة، وكان النبي قد أوكل إلى خمسين نفراً ليقفوا على الجبل ويحموا ظهر المسلمين، ولكن هؤلاء تخلفوا عن أمر رسول الله، عندما رأوا آثار الهزيمة في صفوف أعدائهم المشركين، تركوا مواقعهم ونزلوا من الجبل، وانحدروا إلى الوادي لينشغلوا بجمع الغنائم مع سائر المسلمين، وبقى أفراد قلائل، فلما نظر خالد بن الوليد إلى هذا الموقع الذي تخلى عنه المسلمون، وأصبح منفذاً للهجوم على المسلمين من الخلف استغل خالد هذه الثغرة وهجم مع جماعة من المشركين، وباغت المسلمين من الخلف وأوقع هزيمة منكرة، ففر المسلمون على وجوههم، وبقي النبي وحده مع جماعة قليلة، عددهم تسعة أنفار منهم: علي (عليه السلام) وأبو دجانة الأنصاري ثبتوا مع النبي.

وأشاع أحد المشركين إشاعة: بأن النبي (صلّى الله عليه وآله) قد قتل، وسرت هذه الشائعة بين المسلمين المنهزمين، وأصابهم الخوف والتراجع، ولكن بعد هذه الجولة الخاسرة، وبفعل صمود النبي والأفراد القلائل الذين ثبتوا معه، تمكن المسلمون أن يستعيدوا النصر، وقتل حمزة سيد الشهداء، ومصعب بن عمير، وعدد من الصحابة.

• الروح القيادية ضمان مواصلة المسيرة:

القرآن يريد أن يلتقط صورة من هذه الواقعة، وينقلها إلينا، ويعطينا بذلك درساً عظيماً: (درس الروح القيادية) فعندما أصيب المسلمون بهزيمة نفسية على أثر خسارتهم للجولة الأولى في معركة أحد، وعندما سمعوا بأن النبي قتل، يعني عندما شعروا بافتقاد القائد في ساحة المعركة، فإن هذا يعني أن القضية انتهت، وكأن الناس ليست عليهم مسؤولية مواصلة المسيرة.

إن كل واحد من المسلمين يتحمل جزء من المسؤولية، فالمسؤولية لا تنحصر في شخص واحد هو

القائد مثلاً، أو في طبقة معينة هم العلماء، أو في جماعة معينة، أو في حركة واحدة، بل الكل يشتركون في تحمل القضية، وفي تحمل المسؤولية.

أما إذا فقدت الأمة الروح القيادية، وبدأ كل واحد يلقي بالمسؤولية على الآخرين، هذا يلقي باللوم على ذلك، وذاك يلقي اللوم على هذا، هذه الحالة اللا مسؤولية في الأمة تصيب الأمة بنكسة.

ففي الظروف الطبيعية قد لا تكون مشكلة، لكن في ظروف المواجهة والأزمات، وعندما تتعرض الأمة لنكسة أو لأزمة، حينئذ يجب أن يتحلى كل إنسان بروح المسؤولية...

وليس في الهزيمة كالغزال، أي في الوقت الذي تحتاج الأمة إلى أن تتماسك، وتتكاتف، وتتكاتف حول قيادتها، نرى الأمة تتخاذل، وتتفرق، وتترك قيادتها وحيدة في الساحة، تعصف بها الأزمات والنكسات، حينئذ تقع المأساة، وتحرق بنارها الأخضر واليابس.

(اتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً).

- **افتقاد الروح القيادية جذر المأساة:**

قد لا تكون المشكلة عدم وجود القائد في فترة من الفترات، بل المشكلة عدم وجود الروح القيادية في الأمة، فكل واحد لا يتحمل المسؤولية تجاه القيادة، أو اتجاه القضية، ويلقي المسؤولية على أكتاف الآخرين.

قد تكون عند الأمة قيادة كفوءة وقاد كعلي (عليه السلام) يتمكن أن يقود الأمة إلى شاطئ النصر والأمان، لكن لماذا نجد علياً (عليه السلام) قد انهزم جيشه إمام جيش معاوية، جيش الشام؟ أو نجد الإمام الحسن سلام الله عليه يضطر للمصالحة مع معاوية، وأن يسلم الحكم للحزب الأموي أو نجد الحسين (عليه السلام) يبقى وحيداً في الساحة ويقتل؟؟

هذه مأساة نتيجة عدم تحمل الأمة لمسؤوليتها، وعدم امتلاكها الوعي القيادي.

فالأنبياء والأئمة والمصلحون يعملون ضمن القانون الطبيعي للمجتمعات الإنسانية والقانون الطبيعي: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

الأنبياء والمرسلون قد يأتون إلى أمم وأقوام ليسوا بمستوى المسؤولية، فماذا يفعل النبي؟ هل يجبر الأمة على الطاعة والالتزام؟ أو يحدث من معجزة حتى يصبح الناس في مستوى لائق؟ فإذا كانت الأمة غير مؤهلة للتقدم، ولا تتحمل مسؤوليتها، فإن الأنبياء لا يجبرون الناس على شيء

معين، وهم لا يتمكنوا أن يغيروا السنن الطبيعية، بل يسيرون حسب القانون الطبيعي، فحينما تتعرض الأمة لانتكاسة أو لازمة يجب أن نلتف حول القيادة في كل الظروف وحتى في ظروف الهزيمة، وليس فقط في ظروف الرخاء والانتصار، أو حينما تواجه الأمة غياب القائد عن الساحة فجأة، فإن هذا يجب أن يدفع الأمة إلى أن تتحمل المسؤولية، وتواصل المسيرة، وتلتف حول المبدأ، وتملأ الفراغ الذي أحدثه غياب القائد.

هذه الآية من القرآن الكريم: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ).

تعالج هذه المسألة الحساسة والهامة جداً، يعني أن النبي رسول، ليس بدعاً من الرسل، والنبي بشر، وشخص يأتي ويذهب، وكل شخص يأتي ويتحمل قسطاً من المسؤولية، ولكن إذا ذهب لا يعني أن القضية انتهت وانتهى المبدأ، ولا تنتهي المسيرة لذهاب الأشخاص، المسيرة مرتبطة بالله، والله خالد دائم، فإذن تطلعوا إلى المبدأ الأعلى، وتعلقوا أنظاركم على شخص النبي، فإذا ذهب هل يعني ذهابه إنهاء مسؤوليتكم.

(وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ).

وهنا ننقل صوراً من الروح القيادية التي كانت عند الأمة الإسلامية وعند المسلمين الأوائل.

- **الصورة الأولى:**

في (أحد) عندما فر المسلمون ولم يبق مع رسول الله إلا تسعة من الأصحاب فيهم علي (عليه السلام) وأبو دجانة، والتاريخ ذكر لنا موقف امرأة أنصارية بإجلال واحترام لموقفها البطولي والواعي من القيادة في وسط المعركة وهي نسيبة بنت كعب المازنية، وكانت تخرج مع رسول الله في غزواته لتداوي الجرحى. وكان ابنها معها فأراد أن ينهزم ويتراجع فحملت عليه وقالت:

يا بني إلي أين تفر عن الله وعن رسوله فردته فحمل عليه رجل فقلته، فأخذت سيف ابنها فحملت على الرجل فضربته على فخذه فقتلته.

فقال رسول الله: بارك الله فيك يا نسيبة.

وكانت تقي رسول الله بصررها وثدييها حتى أصابتها جراحات كثيرة وشهد لها رسول الله بقوله:

ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا رأيتها تذب عني يوم أحد.

• **الصورة الثانية:**

إن أنس بن النضر انتهى إلى جماعة من المهاجرين والأنصار ـ وقد ألقوا بأيديهم ـ فقال:

ما يحبسكم؟

قالوا: قتل رسول الله.

قال: فماذا تصنعون بالحياة من بعده، قوموا فقاتلوا وموتوا على ما مات عليه رسول الله.

ثم استقبل القوم (الأعداء) فقاتل حتى قتل.

• **الصورة الثالثة:**

(أبو خيثمة) كان رجلاً قوياً وعنده زوجتان وعريشان.

وكانت زوجتاه قد رشتا عريشيه، وبردتا له الماء وهيأتا له طعاماً فأشرف على عريشته فلما نظر إليهما قال:

لا والله ما هذا بإنصاف، رسول الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قد خرج في الفيح والريح (الحر والبرد) وقد حمل السلاح ليجاهد في سبيل الله، وأبو خيثمة قوي قاعد في عريشته وامرأتين حسناوين لا والله ما هذا بإنصاف.

فأخذ ناقته وشد رحله والتحق برسول الله (صلّى الله عليه وآله).

فنظر الناس إلى راكب في الطريق، فأخبروا رسول الله.

فقال الرسول: كن أبا خيثمة.

فأقبل وأخبر النبي بما كان، فجزاه النبي خيراً.

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ).

وكمحاولة لتربية الأمة على الروح القيادية، نجد القرآن الكريم في آية أخرى، يدعو النبي إلى تطبيق مبدأ الشورى في سلوكه التربوي والتوجيهي للأمة:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ). (سورة آل عمران:

فنجد أن النبي مع كونه رسولاً مطاعاً ونبياً مسموع الكلمة لكنه يستشير أصحابه ويستعمل مبدأ الشورى، لماذا؟

ليربي الروح القيادية في الأمة ويمنح الثقة لأصحابه ويشعرهم بقيمة أنفسهم ويستثير عقولهم.

هذا أولاً.

وثانياً: يستهدف استخدام الحد الأعلى من فاعلية الأمة عن طريق إشعارها بالمشاركة في اتخاذ القرارات والتحامها بخطوات المسيرة القيادية.

فرغم تسليم الصحابة واعتقادهم بأن قرارات النبي إلهية إلا أنه اعتمد المشاورة، ليصبح مثلاً أمام كل الأمة ـ الخواص والعوام ـ وليشيع روح المسؤولية والوعي القيادي بين أبنائها.

١ـ غزوة بدر الكبرى:

إن النبي (صلّى الله عليه وآله) أتاه خبر مسير قريش إلى المسلمين فاستشار من معه من أصحابه، فتكلم المهاجرون كلاماً حسناً.. ولكن النبي ظل ينظر إلى القوم ويقول لهم:

أشيروا علي أيها الناس، فقال سعد بن معاذ:

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل.

فقال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك.. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فسر رسول الله بقول سعد.

٢ـ غزوة أحد:

استشار النبي أصحابه في الخروج فطلبوا منه الخروج لقتال قريش حتى وافقهم على ما أرادوا، فدخل بيته ولبس درعه وأخذ سلاحه وظن الذين ألحوا على رسول الله بالخروج أنهم أخطأوا وأن النبي ليس من رأيه الخروج.

فقالوا: استكرهناك يا رسول الله، ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد.

فقال رسول الله: ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته (درعه) أين يضعها حتى يقاتل.

٣- غزوة الخندق:

لما وجد النبي (صلّى الله عليه وآله) أن البلاء اشتد بالمسلمين بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فاستشارهما في أن يصالح بني غطفان على ثلث ثمار المدينة كي ينصرفوا عن قتال المسلمين.

فقالا له: يا رسول الله أهو أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك به الله، أم شيء تصنعه لنا؟

فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) بل شيء أصنعه لكم كي أكسر عنكم شوكتهم حينئذ قال له سعد بن معاذ:

والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا بالسيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فتهلل وجه رسول الله وقال: فأنت وذلك.

الجمع بين السلطة والهداية

كانت دعوة النبي الأكرم محمد (صلّى الله عليه وآله) حركة سياسية تقوم على أساس عقائدي رصين، لهذا انتصرت هذه الدعوة في أقل من ربع قرن وقامت لها دولة.. والحق كما يقرر الأستاذ توينبي: (لم يصبح للمسيحية تأثير سياسي ديني إلا بعد رسالة المسيح بثلاثمائة سنة وبفضل اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية، كذلك لم يعد للبوذية دور بارز في السياسية الدولية إلا بعد وفاة البوذا بمائتي سنة وبفضل اعتناق الإمبراطور (آسوكا) لها).

أما الإسلام فإنّه على العكس أخذ تأثيره على مجريات الأمور العالمية يعظم بقوة في غضون حياة الرسول (صلّى الله عليه وآله) بل لقد تولى شخصياً صياغة تلك المبادئ التي أثرت في السياسة، ولا تزال تؤثر فيها حتى اليوم.

فبعدما استقر المقام بالنبي الكريم في يثرب دلل على انه عبقري سياسي إلى جانب كونه صاحب رسالة دينية عظمى.

نلاحظ في سيرة النبي درساً عظيماً، وهو يشكل الخط البياني لدعوته المباركة.

وهو انه جمع ـ منذ أول يوم ـ بين فكرة السلطة والهداية..

وصب فكرة إقامة الحكومة في بوتقة التربية وجمع الرسول دعوته إلى الإسلام بين الدنيا والآخرة، وفي كافة مراحل الدعة والتحرك لم يفتأ أن يؤكد الآخرة والنار والجنة، ويرسم لوحة متكاملة عن المصير الأخروي للإنسان في نفس الوقت الذي يحدد له منهج المسير في الدنيا..

وهذه الميزة في سيرة النبي أي الجمع بين السلطة والهداية جاءت منذ اللحظة الأولى لإعلان رسالته، وكان يؤكد عليها في سائر مراحل دعوته، فلم تختلف كلماته يوماً ما يحاول أن يتبع سياسة المرحلية في طرح الشعارات وإعلان المواقف.. أو يحاول التنازل عن مبدأ معين، أو موقف رسالي في مرحلة من المراحل أو تبعاً للظروف السياسية والاجتماعية، فيؤجل إعلان هذا المبدأ أو ذاك إلى مرحلة أخرى أو ينتظر تهيؤ الظروف لذلك.

بل إن أول كلمة في دعوة النبي لا تختلف عن آخر كلمة له.

ومنذ اللحظة الأولى أعلن مجمل رسالته للعالم وبين المعالم الرئيسية في دعوته.

وإذا كانت المعالم الرئيسية لدعوة النبي، هي الدعوة إلى التوحيد، والتصديق بالرسالة، والإيمان بالمعاد.

فقد جعلها النبي محور كلماته الأولى ومواقفه الحاسمة والفاصلة.

وأعلن عنها منذ أول يوم.. ولم يقبل التنازل عن أي منها أمام الضغوطات والتهديدات والإغراءات التي عرضت عليه من قبل المشركين.

فلم يقبل المساومة والمهادنة على هذه المبادئ بأي ثمن ولم يتنازل عن إعلانها في أقسى الحالات وتحت أشد الظروف حراجة.

فلم يكن تحت الضغوط والتهديدات ليتنازل قيد أنملة عما أرسل به أو يحاول ارشاء قريش بالقبول على أنصاف الحلول، والاتفاق على حلول وسط..

فحينما جاءت إليه قريش لتساومه على أن يعبد إلهها شهراً وهي تعبد معه ربه شهراً آخر، وقالوا: (هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبده، ونشترك نحن وإيّاك في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً ممّا نعبد نكون قد أخذنا بحظنا منه وإن كان الذي نعبد خيراً ممّا تعبد تكون قد أخذت بحظك منه).

فأنزل الله تعالى عليه: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).

وفي مكة كان إعلانه الصريح عن رسالته العالمية، وانه مبعوث للناس كافة.

والآية التي جاءت تعبر عن هذا الموقف الرسالي الصريح هي: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا).

وهي مكية، وهي تكذب الذين قالوا: إن محمداً (صلّى الله عليه وآله) حين كان ضعيفاً قال: (أنا رسول لأهل مكة ومن حولها، وبعد أن صار قوياً قال: (أنا رسول الله للناس أجمعين).

وبلغ رسالته كاملة إلى الناس من دون أن ينقص منها شيئاً أو يدخل فيها، أو يفصل بين الدين والسياسة، وبين السلطة والهداية، والحكومة والتربية.

وفي الرواية التالية نجد معالم هذا المنهج الرسالي واضحاً، ونشاهد أسلوب الرسول في الكشف المسبق لرسالته الداعية إلى الدين والدنيا والمنسقة بين فكرة الجنة والنار والحكومة والسلطان في الدنيا.

على أن هذا منهج تربوي عظيم وشاهد على شمولية الدين الإسلامي واستيعابه لحاجات الإنسان الروحية والمادية، وتوجيهه إلى ضمان المستقبل الدنيوي والأخروي معاً.

في تفسير القمي:

لما أظهر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الدعوة بمكة قدمت إليه الأوس والخزرج ـ في موسم الحج ـ فقال لهم رسول الله:

موعدكم العقبة (في منى) في الليلة الوسطى من ليالي التشريق فحجوا ورجعوا إلى منى ـ وكان فيهم ممن حج بشر كثير ـ فلما كان في اليوم الثاني من أيام التشريق قال لهم رسول الله:

(إذا كان الليل فاحضروا دار عبد المطلب على القبة ولا تنبهوا نائماً، ولينسل واحد فواحد) فجاء سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار.

فقال لهم رسول الله: تمنعوني وتجيروني حتى أتلو عليكم كتاب ربي وثوابكم على الله الجنة.

فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن حرام:

نعم يا رسول الله اشترط لربك ونفسك ما شئت.

فقال: أما ما اشترط لربي بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وما اشترطه لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعوني أنفسكم وتمنعون أهلي ممّا تمنعون أهليكم وأولادكم.

فقالوا: (فما لنا على ذلك؟).

فقال: الجنة في الآخرة وتملكون العرب، ويدين لكم العجم في الدنيا، وتكونون ملوكاً في الجنة.

فقالوا: رضينا.

بل أول كلمة طفحت على لسان الرسول كانت كلمة إنذار، فهو البشير النذير معاً.

لما نزل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ..).

وقوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ).

جاء في الروايات أنه صعد الصفا ـ وجعل ينادي: يا صاحباه، يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني عبد المطلب، وذكر الأقرب فالأقرب حتى اجتمعوا، ومن لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً لينظر إليه ما يريد، فقال النبي:

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟

فقالوا: بلى والله، ما جربنا عليك كذباً.

فقال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟

وأجمع المؤرخون على أن النبي (صلّى الله عليه وآله) لما أمره الله أن ينذر الأقربين من عشيرته دعا علياً (عليه السلام) وقال له: أصنع طعاماً واجعل عليه شاة، واملأ لنا عساً من لبن، واجمع لي بني هاشم وعبد المطلب حتى أكلمهم وأدعوهم للإسلام وأبلغهم ما أمرت به، ففعل علي (عليه السلام) ما أمر به ودعاهم وكانوا أربعين رجلا يزيدون رجلاً أو ينقصون، فيهم أعمامه أبو طالب والحمزة والعباس وأبو لهب وبنو عمومته فأحضر لهم علي (عليه السلام) الطعام فأكلوا حتى شبعوا.

وجاء عن علي (عليه السلام) أنه قال عن هذه الحادثة: لقد كان الرجل الواحد منهم يأكل جميع ما شبعوا كلهم منه.

فلما فرغوا من الأكل وأراد النبي أن يكلمهم بادره أبو لهب عمه إلى الكلام وقال: ما أشد ما سحركم صاحبكم. فتفرق القوم ولم يكلمهم النبي..

وبعد أيام قال النبي لعلي: (يا علي قد رأيت كيف سبقني هذا الرجل الكلام فأصنع لنا في غد كما صنعت بالأمس، واجمعهم لعلي أكلمهم بما أمرني الله).

فصنع علي (عليه السلام) لهم الطعام. فلما أكلوا وشربوا، قال لهم النبي: (ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بمثل ما جئتكم به، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم من بعدي؟)

فأحجم القوم غير علي (عليه السلام) فقام وهو أحدثهم سناً وأرفعهم عيناً أحمشهم ساقاً وقال: أنا يا نبي الله.

فأمره النبي بالجلوس وكرر عليهم مقالته فلم يستجب له أحد غير علي (عليه السلام) أيضاً.

ولما رأى النبي إحجامهم وإصرار علي (عليه السلام) أخذ برقبته وقال: (إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا).

فقال القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: لقد أمرك محمد أن تسمع لابنك وتطيع.

ونرى في هذه الرواية بوضوح أن النبي جمع ـ ابتداء ـ بين مسألة الإنذار بالقيامة، والإشارة إلى مسألة الإمامة والحكومة.

ونجد صورة أجمل وأدق للجميع بين فكرة السلطة والهداية في كلمة واحدة قالها النبي في مناسبتين.

- **المناسبة الأولى:**

عندما جاء عبد الله بن مسعود إلى النبي في معركة بدر حاملاً رأس أبي جهل ووضعه بين يديه قائلاً: أبشر يا نبي الله بقتل عدو الله أبي جهل.

فقال النبي: لهو أحب إليّ من حمر النعم.

- **المناسبة الثانية:**

عندما بعث علياً (عليه السلام) إلى اليمن للحكومة بين الناس قال له: (لئن يهدي الله بك رجلاً واحد خير لك من حمر النعم).

فالانتصار على الأعداء وتحكيم سلطة الإسلام تأتي في نفس الدرجة مع عملية الهداية، والتثقيف، والتربية.

وكلاهما: السلطة والهداية ـ خير من حمر النعم.

وكلاهما: الحكومة والتربية ـ من مسؤولية النبي وأتباعه المجاهدين.

أو ليس النبي هو البشير النذير وأرسله الله تعالى: (وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا).

نحن والنبي محمد (صلى الله عليه وآله)

• كيف نحن والنبي محمد (صلّى الله عليه وآله)؟

محمد (صلّى الله عليه وآله) يبدو لنا بعد مضي أربعة عشر قرناً وكأنه لا زال واقفاً منتصب الجبين، داعياً إلى الله، وسراجاً منيراً في دروب الحياة، وشاهداً علينا وعلى الأمة، ومبشراً ونذيراً، إذا كان محمد (صلّى الله عليه وآله) إمام الرحمة فهو يبحث عن اتباع.. إذ لابد لكل مأموم اماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ونحن أمامنا هو نبي الرحمة محمد (صلّى الله عليه وآله).. فماذا يمكن أن نتوقع أن يقوله النبي وهو ينظر إلى واقعنا الزاخر بالضعف والخوف، والمليء بالذل والشهوات.

ألا نسمعه يقول وهو يعلق على واقعنا الحالي: (كيف بكم إذا تداعت عليكم الأمم كتداعي الأكلة على القصعة؟).

قالوا: يا رسول الله ونحن يومئذ قلة..

(قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكن كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور العدو. هم الذين يخطب العالم ودهم، ويتملق على باب دارهم الشرق والغرب.. وهم أذلاء في نفس الوقت يتسكعون على أبواب الأمم الأخرى ويطلبون فتات موائد الشرق والغرب فلم يحصلوا عليه ما هو السر؟ (أمن قلة نحن يومئذ)؟ (لا: بل أنتم كثرة ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن من صدور العدو المهابة منكم!) ضعفنا في قوتنا، ومع كثرتنا نبدو قليلين لا نساوي شيئاً أمام العالم، ولا يزن العالم لنا أي وزن حين يتخذ القرارات المصيرية بشأننا، فيقسمنا ويبيعنا ويقرر استعمارنا ونحن نرضى ونقبل بذلك لماذا؟

لأننا أمة لا تستحق الحياة أبداً..

لماذا: يا رسول الله.. وهل فينا شيء.. وهل فينا نقص؟

نعم، ويقذفنّ الله في قلوبكم الوهن!

الوهن، ما هو الوهن؟

الوهن: هو القوة الخائرة.

قوى موجودة ولكنها خائرة معنوياً... ضعيفة من الداخل.. مثلما قال زكريا لربه: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً).

العظم موجود بالبدن ولكنه خائر من اثر الشيخوخة والسبب هو: هذا الضعف المعنوي الذي فسره النبي بشيئين: (حب الدنيا.. وكراهة الموت).

حب الدنيا بمعنى تحويلها إلى هدف معبود وشيء مقدس لا أن تكون الدنيا وسيلة، وجسراً، ومزرعة للآخر، وساحة سباق واختبار على الخير والتقرب إلى رضوان الله.

لهذا فالدنيا تأخذ بمجامح القلب، وتصرع الإنسان وتقوده إلى السقوط والانحطاط.. وتسد أبواب التفكير الإنساني فلا تدعه يفكر في تحرير نفسه أو تحقيق هدفه الإنساني.. وتراه يكره الموت الذي يكون طريقاً إلى الحياة.. ويخاف الشهادة في سبيل العقيدة والكرامة والوطن.. الشهادة التي هي طريق الخلود والكرامة والرفعة وشبيه هذا المضمون.

كلام آخر للنبي محمد (صلّى الله عليه وآله).. أيضاً يقول تعليقاً على واقع على الإسلام اليوم: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء).

فهل الإسلام يعيش في غربة وحواليه اكثر من ثمانمائة مليون مسلم وتحيطه مئات الآلاف من المساجد والمآذن، والمنائر مزروعة في أرجاء الأرض.. في كل بلد من بلاد الدنيا يوجد مسجد ومسلمون.. وهذا على عكس ما بدأ به الإسلام حيث لم يتجاوز أتباعه ذلك اليوم العشرة والعشرين.

فماذا يقصد النبي (وسيعود الإسلام غريباً) مع هذه الشعبية المنقطعة النظير للإسلام اليوم؟ إلا اللّهم إذا كانوا هؤلاء الكثرة غير المسلمين حقيقة وغير المسلمين فعلاً بل اسماً فقط.

فالمقصود غربة مبادئ الإسلام وتعاليمه.. وأحكامه!!

وهذا هو الواقع فتعاليمه ومحتوياته تعيش غربة موحشة بين أبناء المسلمين.

التعاون عندهم غريب.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عاد عندهم غريباً.

التناصح والتآلف والتضامن والتحابب والتآخي وكل هذه الصفات التي أمر بها الإسلام عادت عندهم غريبة.

القرآن عاد غريباً.

لأنه.. لم يبق من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه.

أليس يأمر القرآن بالجهاد والبذل والتضحية.

والجهاد والبذل والتضحية أصبحت عند المسلمين معدومة..

إذا ماذا تفيد الكثرة حتى لو كانت محقة إذا انهزمت أمام شرذمة قليلة من المغتصبين والمحتلين.

ماذا تفيد الملايين.. لو كانوا يقبلون الرضوخ لحاكم ظالم وطاغية مستبد، ألم يقل القرآن:

(وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)؟! (فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ)!

أما إذا سيطر الظلم والظالمون على الأمة الإسلامية.. ولم يبدر منها رفض أو معارضة للظلم.. فإن هذه الأمة لا تكون مسلمة حقاً.. ويعود الإسلام في هذه الأمة غريباً، لأنه لو كان الإسلام يحكم حياتها لكان وضعها ومصيرها غير هذا الذي تعيشه الآن حتماً.

فالإسلام لا يرضى بواقع الذل والعبودية والخضوع للظلم والأجنبي بينما بلاد المسلمين اليوم يتقاسمها الشرق والغرب ويتحكم فيها حفنة من الظالمين والأنظمة المستبدة والديكتاتورية الحزبية والفردية.

فهل يعيش الإسلام مع هذا الواقع المتردي.

هل يعيش الإسلام في قلب امرئ يقبل الخضوع لغير الله.. ويرضى بالسكوت على الظلم والديكتاتورية.

(إني معذب كل رعية دانت بإطاعة إمام جائر وإن كانت في نفسها تقية).

هكذا قال الله: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). (سورة الأعراف: ١٥٧)

الحرية هي: الرسالة التي بعث بها الأنبياء جميعاً وهي البشارة التي بشرت بها رسالات السماء..

لأنها ـ أي الحرية ـ هي الجوهرة الثمينة وأغلى نعمة منحها الله للإنسان..

وجاء الأنبياء ليعلنوا حرية الإرادة البشرية ويعلنوا.. (قلب الإنسان منطقة حرة).

بل وجاء الأنبياء وهم مزودون بوسائل لتأمين حرية الإنسان والدفاع عنها ضد الطغاة

والمستكبرين ـ من أقوامهم ـ الذين أرادوا سلب حرية المستضعفين. واستعباد الفقراء والضعفاء وقهرهم بالقوة.

حتى الأنبياء عندما يأتوا فانهم لا يكرهوا على الإيمان بالله، أو يجبروا الناس على اتباعهم، لأنه تعالى نفسه لم يشأ أن يجبر الخلق على الهداية والطاعة: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ). (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).

وإنما الأنبياء يأتوا ويقنعوا الناس بالحق ويرشدوهم إلى الصراط المستقيم.. ويرفعوا عنهم الخطر العقلي والتحجير الفكري الذين يفرضهما الطغاة على عقول الناس والسؤال المهم:

لماذا حارب الأنبياء وحوربوا، وخاضوا كفاحاً مريراً ضد أقوامهم، وتحملوا المشاق والآلام، وواجهوا النفي والتشريد والتعذيب والتنكيل من طغاة زمانهم ونماردة عصرهم وفراعنة قومهم؟

لماذا قاوم موسى فرعون؟

وواجه إبراهيم نمرود؟

وحارب محمد (صلّى الله عليه وآله) أبا سفيان وأبا جهل وعتاة المشركين من قريش؟

هل لأن هؤلاء الأنبياء أرادوا أن يجبروا هؤلاء على الإيمان والهداية..

أم انهم أرادوا أن يرفعوا هؤلاء أيديهم عن رقاب الفقراء ويخلوا سبيل المستضعفين ليقرروا مصيرهم بأنفسهم ويختاروا طريقهم بحرية..

اعتقد أن محمدا (صلّى الله عليه وآله) خاض اكثر من ثمانين حرباً وغزوة مع أعدائه وكافح وناضل وضحى.. من اجل تأمين الحرية للمجتمع.. ومن أجل إنارة الطريق للناس.. وتوضيح طريق الخير والهداية.. لمن شاء ويؤمن ويتبع الحق.. ومن أبى إلا النكوص.. فما عليه من الآخرين.. ولا يحق له أن يمنع غيره من الهداية أو يمنع الهداية من الناس.

النبي حارب طغاة قومه لأنهم أرادوا أن يبقوا على جهل الناس وجاهليتهم، ويكرسوا عبادة الأصنام والأوثان، وذلك للمحافظة على مصالحهم وامتيازاتهم التي كانوا يحصلون عليها عن هذا الطريق.

لذلك فإنّ النبي أوّل ما جاء.. لم يقم بتحطيم الأصنام وإزالتها. وإنما حارب الرموز الاجتماعية وعقلية التشبث بالأحجار والتقديس للأصنام.

حارب أبا سفيان.. لأنه كان يستعبد الفقراء والمساكين عن طريق هذه الأصنام.

حارب أبا جهل لأنه كان يعتقد بأن عقيدة التوحيد ونبذ الأصنام تضر بزعامته وتضر كبريائه.

حارب أمية بن خلف وعمه أبا لهب ورؤساء مكة لأنهم أبوا أن يخضعوا لدين يساوي بين العبد وسيده، ويآخي بين الفقير والغني. ولا يدع فرقاً بين بلال الحبشي وسيده القرشي وبين سلمان الفارسي وأبي بكر العربي.. وبين الصهيب الرومي وبين أبناء هاشم انه دين المساواة والأخوة والحرية بين بني الإنسان.

(لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود... كلكم لآدم وآدم من تراب).

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

لهذا فأول من التف حول النبي ودعوته كانوا هم الفقراء والعبيد والمستضعفون.

ولأنهم وجدوا في الإسلام ملجأ للخلاص من العبودية والظلم، ووجدوا في رسالة النبي طريقاً للحرية والشعور بالكرامة.. لقد شهدت رمضاء مكة في الهاجرة إنسان يتلوى من الألم لسانه يتدلى عطشاً، والسياط تنهال على جسده من كل جانب.. ومع هذا يظل ينادي (أحد.. أحد).

إنه بلال مؤذن الرسول.

إنه صورة مشرقة من صمود المستضعفين في وجه المستكبرين لقد كان سيده (أمية بن خلف) لا يطلب منه اكثر من أن يشتم محمداً (صلّى الله عليه وآله) ودينه، وكان يقنع منه لو فعل ذلك بلسانه دون قلبه.

ولكن بلالاً الحبشي كان يفضل أن يموت تحت التعذيب حتى على أن يستنكر باللفظ ديناً نفذ نوره إلى قلبه، أو ينسى تحت وطأة الألم ـ فضل رجل هداه إلى طريق الحق والحرية.

فأراد أن يسجل صورة جميلة لتحدي الطغاة والمستكبرين الذين مهما استطاعوا أن يسلبوا الطعام والماء عن الإنسان أو يسحقوا منه حريته.. أو يسلبوا منه قدرته على أن يقول كلمة الرفض: لا.. في وجه الطغاة.

إن الإسلام يقوم على كلمة واحدة: هي كلمة التوحيد.

وكلمة التوحيد قائمة على شعارين.

أحدهما: شعار الرفض.

لا إله..

أي لا للخضوع لأي شيء ولأية قوة.

لا للخضوع لأصنام البشر والحجر والحديد والورق.

لا للخضوع للمال والشهوة والغرائز والأهواء.

لا للخضوع للأهل والعشيرة والزوجة والولد والبيئة والمجتمع بالباطل.

والثانية:

شعار التسليم. للقوة المطلقة والكمال المطلق.

إلا الله: رمز الحرية والحق والفضيلة والكمال المطلق والجمال الدائم.

وشرط الإيمان ـ في الإسلام ـ أن تكفر بالطاغوت أولاً .. أن ترفض الخضوع للحاكميات الأرضية، وآلهة البشر، والأنظمة الطاغوتية والديكتاتورية.

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى).

الآية بكاملها (المعروفة بآية الكرسي) هي آية الحرية.. وهذه الفقرات منها..تأكيد على حرية الإنسان المطلقة.

حرية الفكر والعقيدة.. حرية النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي حرية ابداء الرأي والمعارضة في وجه الطغاة والظالمين.

الآية هكذا: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..)

أي ليس لأحد الحق على أن يكره الإنسان على عقيدة معينة أو يجبره على سلوك طريقة معينة.

(قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).

أي الطريقة الوحيدة لحرية الإنسان العقائدية وتحقيق حرية العقل والفكر هي: الاقتناع وأن لا يقبل الإنسان عقيدة ما إلا عن اقتناع ووعي، وإلا عن دليل ومنطق.

إذا كان أمام الإنسان طريقان.

طريق الغي وطريق الرشد.

فهو حر في أن يسلك أياً منهما، وهو يتحمل مسؤولية هذا الاختبار، ولا مسؤولية بدون حرية..

والمسؤولية هي ثمن الحرية طبعاً.

وهذا ما رسمته الشريعة الإسلامية في قوله تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً).

أما لو لم يكن أمام الإنسان إلا طريق واحد.. وهو مجبر على سلوك هذا الطريق.. فإن الإنسان في

هذه الحالة يفقد حريته وكرامته الإنسانية.

إن النبي نوح والنبي لوط.. لم يشاءا أن يجبرا زوجتيهما على أن يكونا مؤمنين يعني توفير الحرية الكافية للإنسان في ظل الإسلام.

حريتهم ومسؤوليتهم الإنسانية.. وتذكيرهم بهذه النعمة العظيمة والجوهرة الثمينة التي وهبها الله لهم.

هكذا شرح الإمام علي (عليه السلام) مهمة الأنبياء في كلماته..

(بعث أنبياءه ليذكروهم منسي نعمته ويثيروا لهم دفائن العقول).

وخاطب علي (عليه السلام) الإنسان بهذه الكلمة، وذكره بهذه النعمة.. نعمة الحرية في قوله: (لا تكن عبد غيرك، وقد خلقك الله حراً).

وقال: (من أصبح مهموماً لسوى فكاك رقبته، فقد هون عليه الجليل ورغب من ربه في الربح الحقير).

أي المقصود أن يكون طموحك الأساسي في الحياة تحقيق حريتك، ونيل سيادة النفس وكرامة الشخصية، وتحريرها من قيود الشهوات والأهواء والأغلال الاجتماعية والسياسية.

إن الإمام علي لا يوصي الإنسان بشيء آخر غير الحرية ولا يذكر هدفاً آخر لخلق الإنسان إلا الحرية.

ماذا يعني هذا؟

ألا يعني أننا بعيدون جداً عن دين الإسلام، ورسالة محمد (صلّى الله عليه وآله) ومنهج علي (عليه السلام) في الحياة.. نحن الذين نرضى بالعبودية للطغاة والشهوات النفسية.. ونخضع في حياتنا إمام طاغية مستبد أو نظام دكتاتوري.

نحن ـ بعد هذه الحالة ـ هل يصح أن نسمي أنفسنا مسلمين ومن أتباع محمد (صلّى الله عليه وآله) رسول الحرية..

توصيات إلى الجيل الرسالي

• توصيات إلى الجيل الرسالي الجديد

الحديث عن النبي ـ محمد ـ (صلّى الله عليه وآله) هو الحديث عن الحياة.. (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

والحياة بما فيها من حركة وهدف، ومسير ومصير، وارتفاع وانخفاض، لخصها رسول الحياة في كلماته وفي سيرته الإنسانية التي كانت القمة في الارتفاع وقاعدتها سلسلة مقاومات ونضالات حقيقية ضد الانحدار والسقوط..

حياة النبي تجربة أمة، وسيرة قيادية، ومنهج حضارة إنسانية..

والآن.. الحديث عن النبي ـ في هذه المرحلة من تاريخ أمتنا ـ يختلف عما قبل؟!

في هذا القرن الهجري الجديد..

وضمن محاولة بناء جيل رسالي جديد لا يمكن أن نتحدث عن رسول الإنسانية محمد (صلّى الله عليه وآله) بنفس اللهجة والأسلوب (القديم) الذي كان يطرحه الجيل السابق، ولا يجوز التطلع إلى نبي الحياة بنفس النظرة التي ينظرها الفرد العادي، فيجلس ويلاحظ الجوانب القشرية والسطحية من شخصية النبي، فيصف لنا لون عمامته، أو شكل خاتمه، أو تفصيل هندامه وهيكله..

بل نحن نحتاج إلى الحديث عن الحياة في شخصية النبي.. الحياة التي تبعث الروح من جديد في جسد أمتنا الهامد، وتعطينا الرؤية والمنهج في بناء جيل محمدي، وإعداد طليعة رسالية..

فهل نستطيع؟

هل نستطيع أن نتجاوز ركام النظرات القشرية أو حواجز الروح السلبية في تحليل تاريخنا وتقييم شخصياتنا الرسالية والقيادية؟

هل نتمكن أن نعبر مسافة طويلة وشاقة من الزمن الذي كنا ولا زلنا نعاني فيه من الإحباط، والتخلف، وسيطرة الاستعمار، ونحن مثقلون برواسب ذلك العهد من روح مهزومة ونفس انهزامية، وواقع متشرذم ومتخلف.. والكبت وسيطرة حكام منافقين على بلادنا هم أشد كفراً من

الاستعمار نفسه..

الطريق هو العودة إلى أصالتنا الرسالية..

وعلينا أن نذهب لاستقبال هذا القرن الهجري، ونجعله مدخلاً إلى تاريخ جديد، ومنعطفاً خلاقاً..

والعلاج أن نتخذ من سيرة النبي قوة ومناعة ضد واقعنا المتخلف ونشهر من نهجه سلاحاً بوجه الطغاة والأنظمة الطاغوتية التي تحكم بلادنا..

إن ذكرى الرسول وتذكر سيرته يجب أن يمنحنا حياة جديدة، ويهب أمتنا روحاً ثائرة، وينفخ في جسدها الهامد روح الحياة النضالية..

يعني علينا أن نغير منهجنا في فهم الرسالة، وطريقتنا في دراسة التاريخ الإسلامي، وتقييم قادتنا وقدواتنا الرساليين..

قد تكون المسألة صعبة أو الحقيقة التي يجب أن نعترف بها مرة، ولكنها كمرارة الدواء لابد من تجرعها حتى ننال الشفاء، ونطرد المرض والترهل عن جسم أمتنا وواقعنا، وفي هذا القرن تلوح في الأفق بوادر إشراقة جديدة للإسلام وللحضارة القرآنية.

ومن هذه البوادر بروز جيل جديد في مجتمعاتنا الإسلامية.. يحاول هذا الجيل أن يتعرف على تاريخه وماضيه، وينفتح على تراثه الإسلامي الأصيل، ويستلهم منه مشاعلاً لطريقه ورؤية للمستقبل..

هذا الجيل ينظر إلى سيرة النبي نظرة جديدة تختلف عن نظرات الجيل السابق ـ ذلك نتيجة ظروف الثورة، والانبعاث الحضاري، ونتيجة إحساسه بالتحديات المصيرية والمؤامرات الاستعمارية، واستلهام السيرة النبوية، لأن فيها المنهج الكامل لبناء أمة قادرة على تحمل مسؤوليات التحدي الحضاري، وقيادة هذا العالم الضائع إلى شاطئ السلام والنجاة.

والآن لو أردنا أن نغير منهجنا في بناء الجيل الجديد فعلينا أن نعرف هذا الطريق ونسلكه ـ استلهاماً من السيرة النبوية المباركة..

هكذا نشاهد الرسول محمدا (صلّى الله عليه وآله)..

هكذا كان النبي محمد (صلّى الله عليه وآله)، نشاهد أن الله عندما أراد أن يختاره لأداء الرسالة العظيمة، وتغيير ذلك المجتمع الجاهلي، وبناء مجتمع العدل والإيمان، نشاهد بأن الله يختار لنبيه طريقة خاصة لتربية وبناء شخصيته وإعداده لأداء هذا الدور، هذه الطريقة عبر عنها النبي

بقوله: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).

إن الله يريد لنبيه محمد (صلّى الله عليه وآله) أن يكون مصلحاً لا لزمانه وعصره فقط، ولا لمكة والجزيرة العربية وحدها. بل يريده أن يكون مصلحاً للإنسانية كلها، ولكل العصور والأجيال، لذلك يجب أن تصاغ شخصيته بعيداً عن مؤثرات المحيط والمجتمع والزمان والمكان الذي يعيش فيه، بل هو معد للخروج على هذا المحيط وإعلان الثورة على هذا المحيط، أو يتأثر بهذا المناخ الاجتماعي الفاسد، لذلك يريد أن يخرج نبيه من هذا المحيط ويبعده من هذا المجتمع.

بل نشاهد اكثر من هذا..

وهو أن محمداً (صلّى الله عليه وآله) يولد يتيماً بعيداً عن حجر أبيه، وبعد ولادته ينفصل عن حضن أمه.. ويخرج إلى البادية، لكي لا يبقى في مكة وفي ذلك المجتمع الموبوء.. ويتربى في مناخ البادية النقي، ولكي لا يتأثر بأي قالب من قوالب ذلك المحيط الفاسد المتخلف، لكي تصاغ شخصيته صياغة فريدة، ليس فيها حجم ذلك المكان الضيق، أو لوث ذلك المحيط، أو بصمات ذلك العصر الجاهلي.

بل المفروض أن يكون رسولاً مهيمناً على الزمان والمكان ونبياً خاتماً مرسلاً إلى الناس كافة.

وهذا منهج التغيير في حياة كل مصلح رسالي، وهذا هو الأدب الإلهي.. الرسالي.. وهو أن يخرج الإنسان المؤمن قدر المستطاع من حدود ذاته الضيقة، وقوالب محيطه الفاسد، وظروفه الاجتماعية المتخلفة، ويتمرد بقوة على توابيت الثقافة الجامدة التي جاءت من عهود التخلف والجمود، ويتحرر من ربقة التقاليد الميتة والعادات الاجتماعية السيئة، ويختط لنفسه منهجاً رسالياً ثورياً نابعاً من قيم الرسالة الحقة ومسيرة نبينا وتراث قادتنا العظام، حتى يمكن أن يثور على مجتمعه الفاسد، ويغير مفاهيمه المتخلفة، ويعيد لأمته حياة المجد والانتصار والانطلاق والتقدم.

- **التوجيه إلى القضية الرسالية، والارتفاع فوق الآلام والصعوبات:**

هذا هو رسول الله يعطينا درساً في الارتفاع على الآلام والعواطف الشخصية، ويوجه طاقاته كلها نحو الهدف والقضية الرسالية حتى الانتصار..

اسمعوا القضية كما يلي:

يتوجه النبي ـ كعادته ـ إلى المسجد الحرام ويجلس بفناء الكعبة، ويتلوا آيات الله، ويدعو الناس إلى الرسالة. فينهال عليه المشركون ضرباً وإيذاء.

ويحرك أبو سفيان وأبو جهل جماعة ليؤذوا النبي ويلقوا عليه روث الشاة.. ويرمونه بالأحجار.. ويطرحونه إلى الأرض ويكادوا يقتلونه..

هنا يقبل حمزة عم النبي بعد عودته من رحلة الصيد ليطوف بالبيت قبل عودته إلى بيته في المساء.. فتستقبله إحدى الجواري، وتخبره بما فعل القوم بابن أخيه من الإهانة والضرب والإيذاء، فيشتد حمزة غيظاً وغضباً، ويقبل على القوم فيجدهم قد احتشدوا على النبي واحتوشوه، وانهالوا عليه من كل جانب، فيزمجر فيهم حمزة زمجرة عالية بفرقهم فيها عن النبي، ويجعلهم يرتعدون من الخوف، لأنه هددهم ووجه لكمة قوية إلى أحدهم فطرحه إلى الأرض، وأعلن حمايته الكاملة عن النبي، فسأله أحدهم:

هل أنت على دينه؟

يعني: هل صرت مسلماً؟

فأجاب حمزة وهو في فورة الغضب:

نعم وأنا على دينه وأحامي عنه.

وهكذا استنقذ حمزة النبي من قبضة المشركين، وأنقذه من الموت على أيديهم، وجعل النبي ينهض ويعود إلى بيته مثخناً بالجراح تسيل الدماء على رجليه وبدنه، كما يعود حمزة آوياً إلى بيته بعد أن أفرغ غضبه على المشركين، وأنقذ ابن أخيه محمدا (صلّى الله عليه وآله) من كيدهم.

لكن لم تمر لحظات إلا ويسمع حمزة طرقات على باب بيته فلما فتح له دخل النبي إلى بيت حمزة..

سأله حمزة: ماذا جاء بك يا ابن أخي، وأنت متعب، وعليك أن تذهب وترتاح؟!

قال النبي: جئتك في أمر مهم؟

حمزة: ما هو يا بن أخي؟

محمد: هل صحيح أنك أسلمت؟

حمزة: لا ومن قال لك ذلك.

محمد: أنك قلت أمام القوم بأنك على ديني..

حمزة: لقد قلت ذلك وأنا في فورة الغضب، وإما أردت إنقاذك من كيدهم..

هنا استغل النبي الفرصة وطلب من عمه حمزة أن يسلم حقاً.. فتعجب حمزة كيف أن الرسول وهو مثخن بالجراح وينزف جسده ألماً من صنع المشركين به.. ولكنه ينسى كل آلامه وجروحه ويأتي ليقنع عمه بدخول الإسلام..

انه دليل صدقه، وإيمانه وبرسالته وانبعاثه من قبل السماء وهكذا أسلم حمزة وقبل دين النبي حينما رأى صدقه وإخلاصه لمبدئه إلى هذه الدرجة، بحيث يرتفع على آلامه وعواطفه، ولا يلتفت إلى التعب والمشقات التي يتحملها في سبيل القضية، ويصرف توجهه واهتمامه إلى نشر دعوته وانتصار دينه فقط، واهتمامه براحته وعواطفه الشخصية.

- **العلاقة المبدئية بالقيادة**

عندما أشيع في معركة أحد ـ على لسان أحد المشركين ـ بأن النبي محمداً (صلّى الله عليه وآله) قد قتل، اصطدم كثير من المسلمين بهذا النبأ وألقوا أسلحتهم، فمر أنس ابن النضر.. بجماعة من الأنصار والمهاجرين وقد ألقوا بأيديهم، وعلت وجوههم امارات الخيبة، فقال لهم أنس:

ما يجلسكم؟

قالوا: قتل محمد!!

قال: إن كان قتل محمد فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قتل عليه، وموتوا على ما مات عليه..

ثم قال: اللّهم إني أعتذر إليك ممّا قال هؤلاء، وأبرأ إليك ممّا جاءوا به، ثم شدّ على الأعداء بسيفه، وقاتلهم حتى قتل رضوان الله عليه..

وهنا نزل قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ).

وهذه الآية الكريمة جاءت لتعلمنا أمر عظيماً، وهو التطلع إلى المبدأ الذي يجسده الرسول وليس النظر إلى شخصه..

الرسول باعتباره يجسد مبدأ، ويحمل رسالة الحياة إلى الإنسانية كلها، فإنّ هذه الرسالة خالدة بخلود الحياة، وأن هذا المبدأ لا يقف عند شخص الرسول بل يستمر..

يجب أن تكون قلوب الأمة متعلقة بالمبدأ والقيم الرسالية لا أن تكون عيونهم معلقة بشخص القائد،

فإذا سقط أو ذهب يتخلوا عن المبدأ، أو يتراجعوا عن المسيرة..

ويجب أن تبلغ الأمة مرحلة متقدمة من النضوج الثوري والرشد الفكري.. بحيث لا تعتمد الأشخاص أو العوامل الخارجية، بل يكون اعتمادها الحقيقي على القوى المعنوية والمبادئ والقيم الخالدة،وأن تتطلع دائماً إلى المستقبل الأفضل، وتطوي المراحل العليا من الكفاح، وتحقق الهدف الأسمى من الانتصار والتقدم، ولا تتوقف، ولا تتراجع، ولا تتوانى، ولا تتردد، بل تصمد وتواصل الزحف والمسير حتى تبلغ أعلى درجات السمو والرقي الحضاري..

هكذا جاء القرآن ليعلّم المسلمين بأن المسيرة تتطلب التضحيات والصمود.. ولا تنتهي بانتهاء الأشخاص أو موتهم، بل المسيرة مستمرة، ويجب التطلع دائماً إلى المبدأ الأعلى، والرسول ليس إلا مبلغاً للرسالة وحاملاً لها إلى الناس، وهو حلقة في سلسلة الأنبياء الذين سبقوه، وخاتم الرسل العظام، وهو يؤدي دور التبليغ والإرشاد ويذهب، فعلى الأمة أن تحتضن الرسالة وتواصل الزحف والمسيرة، كما أن هذه المسيرة، بحاجة إلى الضحايا والقرابين وتعمدها دماء الشهداء وتضحيات المجاهدين على طول الخط، لذلك فإنّ النبي يقدم أول ما يقدم أهل بيته علياً (عليه السلام) وعبيدة وحمزة وجعفر في المعركة بين الحق والباطل.

هذا يعني قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً).

أما الذي تكون عينه مشدودة إلى شخص القائد فقط، ولكن قلبه فارغ من الإيمان، ولا يحتضن المبدأ، فهذا يسقط بسقوط القائد، ويتراجع بغيابه عن المسيرة، ويأس ويستلم لتغيير الظروف، ويتأثر لذهاب الأشخاص أو مجيئهم.

وهذا ليس هو المؤمن الحقيقي.. وهذا لن يضر الله أي لا يضر المسيرة.. بل المسيرة مستمرة رغم تراجع المتراجعين، وسقوط الشهداء، والنصر حليف الصامدين المجاهدين..

(وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ).

(الدين لا يعطي قدسية لأشخاص، ولا يدعي هذه القدسية الذاتية لأي أحد.. إنما يعتبر القدسية للمبدأ وللقيم، والأشخاص لهم من الاحترام والتقدير بمقدار قربهم من المبدأ وتجسيدهم للقيم.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)..

وليس للإنسان امتياز على غيره بلون، ولغة، أو عنصر، أو نسب، أو حسب، أو شرف عائلي

وعشائري، والجاه والمكانة الاجتماعية..

وحتى في الآخرة نجد أن الله لا يعير وزناً للنسب، والقرابة والامتيازات الشخصية، والمحسوبيات العائلية والعشائرية.. (فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ).

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)

(يا آل عبد المطلب لا تأتوني يوم القيامة بأنسابكم ويأتي الناس بأعمالهم).

(إن وليد محمداً من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمداً من عصى الله وإن قربت قرابته).

(خلق الله الجنة لمن أطاعه، وإن كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه وإن كان سيداً قرشياً).

فكيف في الدنيا؟ وفي الحياة الاجتماعية؟ يجب تجريد الأشخاص من صفاتهم الذاتية والشخصية والنظر إلى صفاتهم المبدئية ومؤهلاتهم الفكرية والعملية..

إن الله يقول لنبيه نوح: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ).

ما دام ـ أي شخص ـ لم تربطك به رابطة العقيدة والمبدأ فلا اعتبار له ولا أهلية حتى لو كان الشخص هو ولدك ونازلاً من صلبك.

ليست الأهلية بالقرابة والنسب، ولا قيمة لروابط الدم والتراب، وإنما الأهلية بالمبدأ والعمل الصالح، والقيمة الحقيقية بل القيمة والميزة للإيمان والعمل الصالح.. حتى النبي ليس تقديسه لشخصه ولا تجب طاعته لذاته، بل يجب أن يطاع بإذن الله وطاعته اعتبارية لا ذاتية أي باعتباره رسول. (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ). (وأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ).

وقد تكررت (كلمة وأطيعوا) في الآية لبيان الفرق بين طاعة الله وهي طاعة ذاتية، وبين طاعة الرسول وهي طاعة اعتبارية باعتباره مجسداً لقيم الله ورسالته ومبلغاً لها.

المرحلة السابقة التي كانت تعيشها أمتنا كانت مرحلة طفولة فكرية ـ حسب الدورة الحضارية التي تمر بها الأمم عبر مراحل الطفولة، ثم الرشد الفكري والريعان ثم مرحلة الكهولة والشيخوخة..

البرنامج الرسالي للنهضة الاسلامية الحديثة

اتسمت المرحلة السابقة من حياة أمتنا بسمات متعددة منها غلبة حالة نفسية من الأحاسيس التي تطفو بالفكر على السطح ولا تغور إلى أعماق الأمور، وكذلك صفة عامة من التفسير الشعوري للأشياء، والانطباع العاطفي عن مسائل الحياة والكون والتاريخ.

كما اتسمت هذه المرحلة بسمات قشرية، وتبرير العجز الفكري والوضع المتخلف بتبريرات طفولية ـ من النوع الذي يبرر به الطفل عجزة وتخلفه وكسله واتكاله على وجود أبويه، واطمئنانه الخادع إلى استمرار الوضع، أو عدم تقديره للمستقبل ومتطلباته وهروبه من الصعوبات ـ.

والسبب قد يعود من بين الأسباب إلى الوضع السياسي الذي كان حاكماً في تلك المرحلة، وهو وضع سياسي موروث من عهود الاستعمار والتخلف، فقد أفرز هذا الوضع سيطرة أنظمة استبدادية، وحكومات عائلية وراثية، تشيع الكبت والديكتاتورية، وتخلق جواً من الإرهاب والشعور بالهزيمة، أو تساعد على غلبة المواقف الشعورية العاطفية، وشيوع حالة من القشرية، والتقليد الأعمى للآخرين، والتقلبات العاطفية، والأحكام السطحية، وهذه الحالة أشبه ما تكون بحالة الطفل في جو عائلي يحكم فيه أب خشن الطبع، حاد المزاج، وتسيطر على البيت أجواء الكبت والتشنج، ويخلو مناخه من نسمات الحرية والمرح، فكيف يا ترى يشب هذا الطفل وينمو في مثل هذا الجو الخانق المكبوت؟؟

وهكذا نشأ جيلنا السابق في أجواء سياسية مكبوتة، وفي ظروف اجتماعية موروثة من عهد الاستعمار والانتداب، وفي أوضاع نفسية وفكرية متدنية تسودها النفسية الانهزامية المتخاذلة، والأفكار التبريرية التخديرية التي أشاعها الاستعمار وعملائه ـ عبر أجهزة الإعلام المضلل ووسائل التوجيه والتحريف الفكري ـ.

من هنا سادت حالة الطفولة السياسية، والتخلف الفكري والثقافي على حياة أمتنا، وهذه الحالة بدورها أوجدت مأساة التخلف الحضاري والفقر والحرمان الاقتصادي، والجهل والأمية، والتجزئة والتشرذمات الإقليمية في بلادنا الإسلامية.

وللخروج من مرحلة الطفولة الفكرية، والوصول إلى مرحلة البلوغ الحضاري والرشد الفكري.. علينا أن نطوي هذه المرحلة المتوسطة، التي تشكل البرزخ بين مرحلة الطفولة وبين مرحلة الشباب والرشد، أو ما يعبر عنها بفترة المراهقة ـ في مسيرة الإنسان العادية ـ.

ومثل مرحلة المراهقة في عمر الإنسان ـ حث تكون مرحلة صعبة، وحيث تتفتح في كيانه كل المشاعر وتتبرعم في نفسه المواهب، وتنفجر في داخله الطاقات الغريزية والنفسية والذهنية.

فالإنسان بحاجة ماسة في مثل هذه الحالة إلى أن يحسن استغلال هذه الفترة، ويعرف كيف يستثمر هذا الانفجار الشعوري، والانفتاح الذهني، والاستعدادات والطاقات الذاتية، وهذا طبعاً بحاجة إلى وجود مرشد وموجه يوجه الإنسان إلى طريقه السليم لاستثمار هذه المرحلة، وبحاجة إلى هداية تهديه إلى اختبار برنامج حياتي صائب، ومنهج لبناء شخصيته الإنسانية المتكاملة، واستثمار طاقاته وتنمية مواهبه.

وإلا ـ بغير هذه الصورة ـ فقد ينحرف الإنسان ويتعرض لمزالق الطريق، ويقترب من مواقع الخطر، ويشرف على السقوط لأن هذه المرحلة من حياة الإنسان مرحلة اختبار صعبة تصاحبها معاناة واقعية، وأزمات وصعوبات محتملة، يحتاج الإنسان فيها إلى حسن التوجيه وادارة، وإلا ضاعت وتبددت فرص النمو والاكتمال عنده، ولربما انقلبت عليه وتحولت ضده، وصارت سبباً لدماره وخسارة عمره ورأسماله..

وأمتنا اليوم هي الآن هكذا تمر بمرحلة مراهقة فكرية وسياسية وحضارية تودع مرحلة سبقت، وتستعد لاستقبال مرحلة قادمة هي مرحلة النمو والرشد والانطلاق الحضاري، والنهوض بمهمات القيادة لمستقبل العالم المعاصر بعد أن كادت الحضارة المادية بشقيها الغربي والشرقي تؤذن بالرحيل، وتستنفذ أغراضها المرحلية، وتقارب الانهيار لما تحمل في بنيتها من بذور الفناء، ولما ركبت من أول يوم على أسس زائلة وحاجات مرحلية تنفذ وتستنفذ منها الإنسانية أغراضها.

فالآن.. وبعد انفجار وانتصار الثورة الإسلامية في إيران... بدأت تدخل أمتنا الإسلامية مرحلة جديدة من مسيرتها الحضارية، وهي مرحلة اليقظة والانفتاح والانطلاق وتودع مرحلة الطفولة والغفلة السابقة، وتمر بفترة من الزمن يمكن أن نطلق عليها بفترة (المراهقة الفكرية والسياسية) وما ترافق هذه الفترة من تفتح وانفجار شعوري ونفسي، واستعداد للنمو والازدهار الحضاري، كما أنها لا تخلو من صعوبات وأزمات ومعاناة حقيقية لاجتياز هذه المرحلة الصعبة في حياة الفرد

أو الأمة سواء بسواء..

فإذا كانت الأمة اليوم تعيش هذه المرحلة، فهي لا شك تحتاج أيضاً إلى ذلك المرشد الذي يرشدها إلى حسن استغلال هذه المرحلة الانتقالية، واستثمار ما فيها من الفرص والطاقات المتفتحة، وتحتاج احتياجاً مسيساً إلى من يهديها إلى ذلك البرنامج الحياتي، والمنهج الحضاري الصحيح، الذي يستطيع أن يوجه طاقاتها واستعداداتها، ويعدها لبلوغ تلك المرحلة من الرشد الحضاري والنضوج الفكري والسياسي الذي تستأهل به قيادة العالم، وإنقاذه ممّا يعاني، وبناء مستقبل أفضل للبشرية.

هذا المرشد هو النبي.. وهذا البرنامج هو رسالة الإسلام الخالد.

فلابد لأمتنا من الاهتداء بمنهج الرسالة المحمدية، التي هي بدورها زبدة كل الرسالات السماوية، وحصيلة المسيرات الرسالية في التاريخ الإنساني كما أن نبينا محمد (صلّى الله عليه وآله) يشكل القمة، فهو خاتم النبيين وسيد المرسلين في هذه المسيرة، والقيادة في قافلة النبوات والأنبياء وفي كلمة للإمام علي (عليه السلام) يشرح فيها دور الأنبياء في حياة الناس والهدف من بعث الرسل يقول: (فبعث فيهم (في الناس) رسله وواتر (تابع) إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليه بالتبليغ، وليثيروا لهم دفائن العقول، وليروهم آيات القدرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد (أي ارض) تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم وأوصاب (أمراض) تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم).

هذا هو خط المسيرة الرسالية التي يجب على الأمم أن تسير عليه للوصول إلى الرشد الحضاري والنمو والازدهار..

١ـ ليستأدوهم ميثاق فطرته:

لدى تأملي لهذه الفقرة من الحديث العلوي الشريف تذكرت الحج، وتبادرت إلى ذهني صورة الحجيج الوافدين إلى بيت الله الحرام، ومنظر ذلك التجمع المليوني، والمؤتمر السنوي العالمي للمسلمين، وتوافدهم إلى المشاعر المقدسة من كل أطراف الدنيا، ومختلف الشعوب والجنسيات والقوميات فتشاهدهم إمام عينك في أثناء مراسم الحج، سواء في حالة الطواف حول الكعبة، أو في عرصات عرفات، أو جنبات منى، أو حول قبر النبي (صلّى الله عليه وآله)، تشاهد تلك السيل

البشري الهادر وقطراته التي تشكلت من كل لون وعنصر ولغة، وكلما تمد عينك يميناً وشمالاً تطالع أناساً من كل قارات الدنيا، وأجناس مختلفة من أقصى شرق الأرض وغربها، أو من أقصى شمال العالم إلى جنوبه، وقد جاء هؤلاء تلبية لدعوة إبراهيم الخليل (عليه السلام): (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ).

وفي كل سنة يتكرر هذا المنظر الأخاذ لاجتماع الإنسانية وشعوبها، في موسم واحد، وعلى صعيد واحد، يرددون على مختلف لغاتهم ولهجاتهم كلمة واحدة (لبيك اللّهم لبيك) وليتجهوا إلى هدف واحد، ويقوموا بأعمال موحدة، ومناسك واحدة، ولكن ما الذي جاء بكل هذه الشعوب المختلفة جنساً ولغة ولوناً من كل أصقاع العالم، هذا من أفريقيا، وهذا من آسيا وهذا من جزر الملايا، وذاك من أوروبا أو الأمريكيتين؟!

هذا أعجمي وذاك عربي، هذا هندي، ذاك تركي، هذا من بلاد الخليج، وذاك من سواحل أفريقيا، وهذا من الصين أو اليابان، وذاك من مصر والعراق وإيران..

منظر عظيم وتظاهرة إنسانية ضخمة!!

من وما الذي صهر هذا الخليط البشري في بوتقة، وجمعها في حركة واحدة إلى وجهة واحدة، وجلبها من كل مكان إلى هذا المكان؟

إنها دعوة إبراهيم التي وجهها إلى كل أجيال البشرية وشعوب الإنسانية جمعاء ـ وهؤلاء المسلمون أتباع محمد (صلّى الله عليه وآله) جاءوا لأداء فريضة الحج التي فرضها الله على كل مسلم.

وما الذي فعل إبراهيم ـ وصنعه محمد (صلّى الله عليه وآله) لجذب هذه الحشود البشرية في كل سنة، وجمع هذا السيل الجاري الذي لا يزال يتدفق بلا انقطاع ـ منذ أوّل يوم بني فيه إبراهيم الخليل (عليه السلام) بيت الله وعلى مر العصور والأجيال وحتى يومنا هذا والى يوم القيامة؟

وسيستمر هذا السيل الهادر ويتصل تدفقه، ويجمع قطراته من كل مكان، لتصب في مجرى الوحدة الإنسانية العظيمة، وتسيل في مصب الأخوة الإسلامية العظيمة ليشعر كل مسلم بأنه أخو المسلم الآخر دون فرق بين أسود وأبيض، أو تمايز بين عجمي وعربي.

إن الأنبياء وعلى رأسهم إبراهيم الخليل (عليه السلام) والنبي محمد (صلّى الله عليه وآله) صنعوا شيئاً واحداً وعظيماً.. وهو أنهم ذكروا الناس بفطرتهم.

الفطرة هي: قوة الجاذبية التي تمكنت أن تجمع هذا الخليط البشري الضخم في موسم واحد، وفي مكان واحد، لقد ذكروا الإنسان بفطرته الإنسانية، وأشعروا هذا الكائن بأنه مخلوق الله، ومسؤول في هذه الحياة،ومطلوب منه أن يسير في طريق الله إلى الله.

هذا الذي صنعه الأنبياء، وعجز عنه بقية المصلحين والعظماء وأصحاب المبادئ والمذاهب الوضعية. (ليستأدوهم ميثاق فطرتهم).

أي إن الله أخذ من الخلق ـ يوم خلقهم ـ ميثاق العبودية له وتوحيده، فلقد خلقهم لغاية وهدف: هو أن يتجهوا في حياتهم إلى الله، ويوحدوه، ويعبدوه، ويطبقوا منهاجه وشريعته المنسجمة مع الفطرة البشرية تماماً، وما على الأنبياء إلا أن يعيدوا الإنسان إلى فطرته ويذكروه بإنسانيته ومسؤوليته، ويثيروا فيه الإحساس بالكائن المخلوق الذي عليه أن يتوجه إلى الخالق قلباً وقالباً.

ولكن لو نسي الإنسان نفسه، وغفل عن فطرته، وضل الطريق إلى اكتشاف ذاته، ولم يعرف انه مخلوق لغاية ولهدف، وانه كائن حر ومسؤول، فهنا يكمن سر الانحراف والضلال في حياة الإنسان، ويكون مصيره إلى الخسارة والدمار، فلنعمل عمل الأنبياء ونؤدي هذا الدور الرسالي في الحياة وهو:

تذكير الناس بفطرتهم، وتنبيه الإنسانية إلى نداء العقل والفطرة، وإعادة الإنسان إلى الإنسان، أي توجيه الإنسان إلى مسؤوليته الإنسانية، وإشعاره بحريته وكرامته، وتذكيره بأنه مسؤول عن هذه الحرية، ومطلوب منه أن يحيا في الدنيا حراً كريماً، والطريق إلى الحرية هو العبودية المطلقة لله، والطريق إلى الكرامة لا تكون إلا برفض كل العبوديات والخضوع لغير الله.

٢ـ ويذكروهم منسي نعمته:

أية نعمة أغلى من الحرية..

بل هي الأمانة التي حملها الله سبحانه وتعالى للإنسان بعدما عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ـ وحملها الإنسان..

هذه الأمانة كانت نعمة العقل، والاختيار، ونعمة الحرية، ولكن قد ينسى الإنسان هذه الأمانة. وقد يجهل قدر هذه النعمة، ويجهل قيمة هذه الحرية، فيبيعها بثمن بخس، يبيعها مقابل الحصول على شهوة رخيصة، أو مصلحة آنية، أو منفعة وقتية، ويرضى بالخضوع للشيطان والذل أمام

الطاغوت قبال حفنة من الدراهم، أو ينسى سعادته وإنسانيته وهي الحرية، ويشتري الذل والشقاء الأبدي.

فالحرية أغلى نعمة وهبها الله للبشرية، وميزة وفضله بها على سائر المخلوقات، وثمنها غال جداً.. إنها: المسؤولية.

فالإنسان مسؤول لأنه حر، بينما ساير المخلوقات من حيوان وجماد ونبات ـ غير مسؤولة، لأنها لا تملك الحرية والاختيار، لكن حينما يجهل الإنسان قدر نفسه، وينسى نعمة الله عليه، ويضيع نفسه في زحمة الشهوات والصراعات الدائرة في داخله بين قوى الخير والشر، بين الشهوة والعقل، بين الإرادة والغريزة، وينسى بالتالي أنه مسؤول عن اختيار طريق الخير، واتباع نداء العقل، وتحقيق السيادة على نفسه بارادته، حينئذ يسقط، ويظلم نفسه، ويخسر حياته، كما قال الله: (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً).

لأن رأسمال سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة هو حريته، وعليه أن يسعى، ويكد، ويتعب، ويكافح من أجل تحقيق هذه الحرية عن طريق:

١ـ السيادة على نفسه وشهواته وغرائز نفسه التي تجره إلى السقوط والحضيض.

٢ـ الكفاح ضد الطغاة والظالمين الذين يريدون أن يسلبوا منه حريته وكرامته، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بالكفر وبـ(الجبت والطاغوت) وهذه هي المهمة الثانية في حياة الأنبياء، الاهتمام بهذا الكنز الدفين الذي يملكه كل فرد في داخله:

١ـ الوعي. ٢ـ حرية الإرادة الإنسانية.

فقلب الإنسان منطقة حرة، لا تتمكن كل قوة الدنيا أن تجبر الإنسان على كره أحد أو حب أحد، بل الإنسان هو الذي يقرر ويختار بكامل وعيه وارادته، فما عليه إلا استثمار وعيه وارادته لنيل الحرية في الدنيا والسعادة في الآخرة.

٣ـ وليحتجوا عليهم بالتبليغ:

إذا كان الإنسان حراً ومسؤولاً عن مسيره ومصيره، وتحقيق حريته وسعادته، فكيف يضمن لنفسه الحرية والسعادة؟ وكيف يكون؟ ومثل من حتى يكون حراً سعيداً؟

الجواب: إن الأنبياء يأتوا فقط ليرشدوا الإنسان إلى أمانة العقل ونعمة الحرية، وينبهوا إلى

رأسمال سعادته: الوعي والإرادة بل أنهم أيضاً كافحوا من أجل تضمين هذه الحرية، وتحقيق هذه السعادة للإنسانية، وناضلوا وتحملوا كل ألوان العذاب والتشريد والتهجير، وذاقوا صنوف التنكيل والتعذيب حتى القتل، من اجل أن يزيحوا الظلم والظلام عن طريق الإنسانية، ويقاوموا أولئك الطغاة والجبابرة الذين أرادوا استعباد الإنسان، وسلب حريته وكرامته ومنعه من حق الاختيار والإرادة.

فسلوك الأنبياء ومسيرتهم النضالية خير قدوة لنا، ويعتبرون حجة علينا، لأنهم أعطونا المنهج الكامل لإدامة طريقهم في مقاومة الظلم والباطل، والجهاد من اجل استعادة حرية شعوبنا، وتحقيق الكرامة لأمتنا، وتطهير الأرض من الظلم، والاستعمار، والاستبداد، والاستعباد، وهذا يتوقف على فهم الإنسان مسؤوليته، ومعرفته الطريق لأداء هذه المسؤولية، وهو طريق الكفاح والنضال من أجل الله، والحق، والحرية، كما علمنا الأنبياء ورسموا لنا الطريق بتضحياتهم، وبلغونا رسالة النضال والحرية، ليس بكلامهم فقط بل وحتى بدمائهم وجهادهم بالمال والنفس والغالي والرخيص.

٤- وليثيروا لهم دفائن العقول:

سؤال: ما الذي يمنع العقل من الانطلاق والتحفز نحو الإبداع والابتكار؟ وما الذي يمنع الإنسان من استثمار موهبته العقلية وطاقته الفكرية وتنميتها؟

الجواب:

١- حين يكون العقل دفيناً تحت أركام من الشهوات، والهوى، والغرور، والتكبر عن قبول الحق.

٢- حين يكون الفكر مكبلاً بقيود سياسية، وسلاسل من الكبت الفكري، والقمع السلطوي والسياسي.

٣- حين يضع للفكر سقفاً من التقليد الأعمى للآباء، وتصنيم الأشخاص، والتعصب للماضي الموروث.

٤- الخوف من نتائج الفكر، ومسؤوليات التفكير، والتحليل العقلي للأمور، من تحمل مسؤولية المواقف والأعمال التي يتوصل إليها العقل، ثم يتطلب من الإنسان أن يغير مواقفه السابقة، أو يعيد النظر في برامج حياته.

في سبيل رفع هذه العقبات والموانع النفسية والخارجية من طريق الإنسان، وتحرير عقله وإرادته

الإنسانية من كل ضغط وقيد، كان برنامج الأنبياء في هذا السبيل هو:

١ـ تحرير العقل الإنساني والإرادة البشرية من قيود الهوى والشهوات، وتحكيم مقاييس العقل والمنطق العلمي في اختيار الطريق الصائب في الحياة، وتقوية الإرادة وترسيخ الصلابة النفسية للإنسان أمام الشهوات والأهواء.

ومن ذلك نجد في الآيات القرآنية تنديداً بكل من يتخذ هواه إلهاً يعبده ويطيعه، ويتخذ من شهواته ومصالحه الآنية قبلة يتوجه إليها، وتجره إلى السقوط والنهاية المدمرة، ويدع طريق الحق والكمال الإنساني!!

وكذلك جاء في الأحاديث النبوية الشريفة تأكيداً ملحاً على ترويض النفس، وتصليب الإرادة، وامتلاك المقاومة الروحية للشهوات، والسلبيات، والعقد النفسية، التي تكبل عقل وشعور الإنسان، وتمنعه من الصعود والسمو، فقد ورد في الحديث:

(أشجع الناس من غلب هواه).

و(قاتل هواك بعقلك).

و(فاز من غلب هواه وملك دواعي نفسه).

واعتبر النبي الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، أي مقاومة شهواتها ونزواتها، وتزكية النفس وتحريرها من أسر لنظرات الضيقة، والمصالح الذاتية، والأنانية، والعقلية النفعية..

٢ـ جاهد الأنبياء من اجل تكسير القيود السياسية وإزاحة الأغلال والأنظمة الدكتاتورية على المجتمع..

فنجد في وصف مهمة النبي في القرآن الكريم قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ).

ففي مقدمة مهام النبي مقاومة الانحراف السياسي والاجتماعي، ورفع القيود والأغلال الخارجية والسلطوية، التي يمكن أن تحجر على العقل والتفكير، وتمنع الإنسان والمجتمع من الانطلاق، ومن مقاومة حقه في تقرير مصيره، وتحقيق حريته واستقلاله.

إن أحد أسباب التخلف الفكري والثقافي في مجتمعاتنا اليوم هو سيطرة الأنظمة الطاغوتية والحكومات العملية والمرتبطة بالاستعمار وأحد المعسكرين الغربي والشرقي.

وهذه الأنظمة والحكومات لا تتمكن أن تعيش في أجواء نقية يتنفس فيها المواطنون نسمات الفكر المتحرر، أو يستنشقوا هواء الحرية.

بل لابد لهذه الأنظمة والحكومات لو أرادت أن تعيش وتستمر في السلطة أن تحكم الشعب بقوة الحديد والنار.

وفي ظل القمع السياسي، وأجواء الدكتاتورية، كيف يتمكن أن يعيش الفكر الحر، أو ينطلق العقل البشري، وينتج ويبدع ويحلق إلى قمة الإبداع والابتكار!!

إن الله تعالى نفسه لم يشأ أن يكره الناس على الإيمان به، أو اختيار عقيدة معينة عن طريق القسر والإكراه، بل قال عز وجل في آيات متعددة: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ). (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ). (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ).

حتى جاء القرآن ليبشر أولئك: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ).

بأنهم: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ) (سورة الزمر: ١٨)

يعني أولئك الذين يستمعون إلى مختلف الآراء والأفكار المطروحة، ويقارنون فيما بينها مقارنة علمية، ويقيمونها بميزان العقل والمنطق، ثم يختارون من بينها أصوب الآراء، وأرقى الأفكار، وأسلم الطرق فيتبعونه..

لأن (القول) ـ في الآية ـ اسم جنس للرأي والفكر والمعتقد.

(يستمعون القول) بمعنى يستمعون مختلف أنواع الفكر والمبادئ والمعتقدات المعروضة في معرض الواقع.. ثم يبدأون المقارنة والتحليل والتقييم بينها، حتى يتوصلوا بذلك إلى الرأي الأصوب، والفكر الأفضل، ويتبعوا الأحسن.

والأمر يقتضي وجود حرية كافية، وتوفر أجواء سياسية مساعدة، تشجع على عرض مختلف الأفكار، والمذاهب، والآراء، ووضعها في معرض التقييم والمقاومة والتحليل، حتى يتم اختيار أي منها عن قناعة ودليل.

أما مع وجود مناخ سياسي مكبوت، وأجواء فكرية واجتماعية خانقة، فلا تظهر كنوز الفكر البشري، ولا تبرز جواهر الحكمة، بل تقبر المواهب والكفاءات، ويدفن العقل الإنساني تحت تراب أقدام الطواغيت، وحينئذ يضطر المفكرون والعباقرة أن يتحولوا إلى مساحي أحذية السلاطين، ويجبر حملة الأقلام والكتاب والمحررون أن يلمعوا وجه الحاكم البشع قبالة الفتات الذي يرميه

إليهم.

٥- ويروهم آيات القدرة:

هذه الفقرة تحتوي على التربية العقائدية للجيل الرسالي، ومن الواضح: أن التربية العقائدية تشكل أساس الرصين في بناء مجتمع متماسك مترابط، ومتحد ومنسجم فيما بينه، ومتجه إلى هدف واحد أصيل، فيقوده إلى الهدف نحو الحركة الدائبة، والانطلاق الدائم، والتحرك المستمر، نحو الهدف الأسمى، ونحو الأفضل، والى الأعلى، وإلى الأمام.

فلا عجب لو ركز الأمام في نهاية وصفه لمهمات الأنبياء على بيان الهدف الأسمى، والقمة العالية من تطلعات الإنسانية وكفاح البشرية، والنتيجة النهائية من تلك المسيرة التكاملية للإنسان، والكدح، والمعاناة الممزوجة في كيانه.

هذا الهدف وتلك القمة والنتيجة هي معرفة الله والوصول إليه، والبلوغ إلى الكمال المطلق، والكدح المتواصل حتى يلاقي مرضاة الله، فلابد من شد نظر الإنسان ورفع تطلعه إلى هذه القمة والكمال المطلق.. والجمال المطلق.. ولابد للإنسان في سبيل تربية نفسه، وبناء شخصيته العقائدية، أن يستدل من وجود النظام في الكون على وجود المنظم، ويستنتج من حركة كل ذرة في الكون بأنها دليل لوجود المحرك، ويعبر من يعبر من المادة إلى ما وراء المادة، ومن الكون إلى المكوّن، ومن الطبيعة وتحولاتها إلى خالق الطبيعة السرمدي الدائم..

وبالنتيجة: يسمو الإنسان بعقله فوق ذاته، وفوق المادة والتراب، ليبلغ إلى قمة الإنسانية التي تتلخص في العبودية المطلقة لله، وتطبيق نظامه ومنهجه في الحياة، والمجتمع، والسياسة، والاقتصاد، لأن إله الأرض هو إله السماء.. ولا إله إلا هو.. ولا يجوز تطبيق نظام غير نظام الله، وتنفيذ منهج غير منهجه القويم!!

الخلاصة

إن الإسلام عقيدة ونظام، عباد الله مطلقة، وكفاح في سبيل التحرر من الجبت والطاغوت، هكذا وصف الإسلام أحد المجاهدين من الرعيل الأول في صدر الرسالة الإسلامية أمام رستم قائد

الفرس: بأن الإسلام (خروج من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، ومن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان إلى العبودية لرب الإنسان..)

وكما قال الله في المنهج الرسالي للنبي محمد (صلّى الله عليه وآله): (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ).

لقد جاء الأنبياء ليقوموا بدور التزكية للنفوس، والتربية الروحية، والبناء الذاتي الثوري للناس والطلائع المؤمنة كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

وهذا دور عظيم وعظيم جداً في حياة النبي خاصة، وفي برنامج المسيرة الرسالية عامة.. أي دور التزكية..

لقد ورد ذكر التزكية قبل التعليم في الآية، لأن التزكية ـ أي التربية ـ قبل العلم، وحده بدون تزكية، وتربية الذات الثورية لا يكفي بل قد يضر أحياناً!!

فالعلم بدون الإيمان بالله والروح الإيمانية يعني قنبلة ذرية تلقى على هيروشيما تدمر الحياة والإنسانية!!

والعلم بأن العدل حسن والظلم قبيح، وبأن الصدق خلق حميد والكذب خلق سيئ لا يكفي، إنما يحتاج الإنسان إلى النفس المؤمنة، والإرادة الإنسانية القوية، التي تردعه عن الظلم والكذب، وتوجهه نحو العدل الصدق، ففي مواجهة ضعف النفس البشرية، وشهواتها، وسلبياتها، ومخاوفها، وعقباتها، التي تمنعها من الانطلاق في سبيل الحق والخير، وتحقيق السعادة الإنسانية، من قيد الهوى أو سائر الأغلال والموانع الذاتية التي تجعل الإنسان ضعيفاً أمام تقرير مصيره، واختيار طريقه الصحيح، واتخاذ قراره بالفعل وفق منهج الحق..

فالأساس المتين في بناء جيل رسالي جديد يستعد لتحمل مسؤولياته الرسالية أمام الله والإنسانية والتاريخ هو: التربية الروحية، وبناء الذات الثورية لدى هذا الجيل.